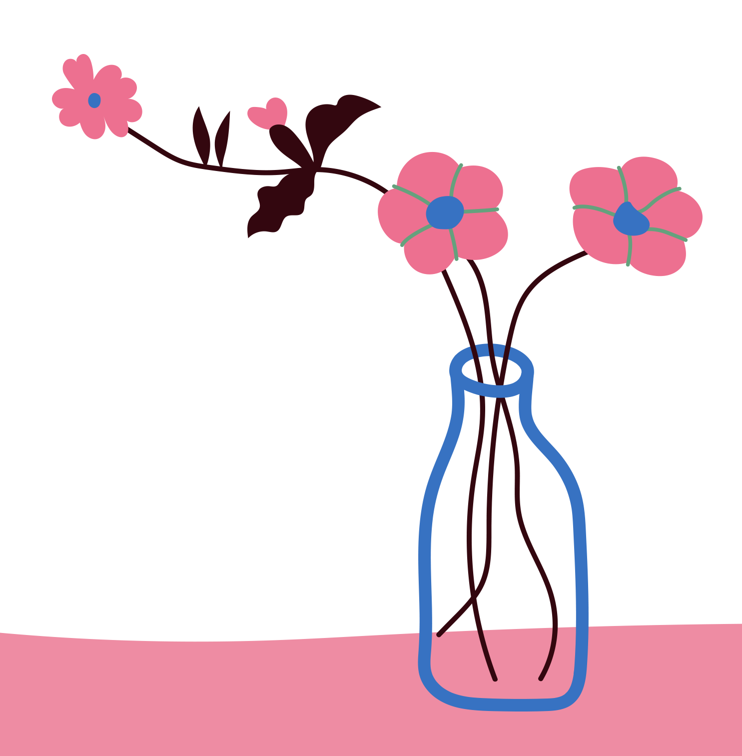
الحب والحياة



أمين سلامة

الحب والحياة

تأليف
أمين سلامة



الحب والحياة

أمين سلامة

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٢٤٨ ٥

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

مقدمة

يسرُّني أن أُقدِّم لقُرائي الأعزاء عشرين قصة من واقع الحياة. ولن يصدقوني إن قلت لهم إنني كتبتها كلها في زمنٍ ضرب الرقم القياسي للسرعة في التأليف ... فكل ما استغرقتْه هذه العشرون قصة من وقت، لا يتعدَّى خمس عشرة ساعة، بل أقل من ذلك بكثيرٍ.

ولست أقصد من قولي هذا أن أوحي إلى القارئ النبيل، ببراعتي في كتابة هذا اللون من الأدب، أو أنني أكتب دون عنايةٍ ولا تفكير ولا تفهُّم لصُلب القصة وتماسك أجزائها.

بل، على العكس، أردت أن أُعلِم قارئي النجيب، بحقيقة لا أجد ضيرًا في أن أخبره بها ... فيوم أمسكت القرطاس والقلم لأكتب القصة الأولى، كنت جالسًا في المطبعة التي تُطبع فيها مؤلفاتي وما أترجمه عن الإنجليزية أو عن اللاتينية أو عن الإغريقية القديمة.

وكانت آلات الطباعة تعمل في نظامٍ آليٍّ رتيب يُحدث موسيقى منتظمةَ الوحدة، تصل أصواتها إلى أذني لذيذةً جميلةً مُشجية، لا تقل روعة عن موسيقى عبقري هذا الجيل، وكل الأجيال: الأستاذ الدكتور عبد الوهَّاب ... وهكذا، ولد هذا الكتاب على أنغام موسيقى آلات الطباعة.

وإني لأرجو أن يعجبك وتجد فيه مُتعة عظمى، تختلف عن متعة عشرات القصص القصيرة الأخرى التي سبق أن قدَّمتها لك في كتبي السابقة، والتي لا أجد داعيًا لذكر أسمائها الآن، لأنها تكاد تكون معروفةً لمعظم قُرائي، وما أكثرهم، ولا فخر، وموجودة فعلًا على رفوف مكتباتهم المنزلية.

من حق قُرَّائي الكرام عليَّ، أن أشكرهم على ما ألقاه منهم من تشجيع يُلهب خيالي، ويشحذ قريحتي، وينشط قلمي الذي ما إن يمس الطِّرس حتى ينطلق تلقائيًّا، صامتًا متكلمًا.

قصص هذا الكتاب، بعضها مُستمَدٌّ من واقع عشته أنا شخصيًّا وحدث لي، أو عاشه أصدقائي وصديقاتي، وألمت به وبكل حذافيره حتى حفظتُه عن ظهر قلب ... ولكنه لا يخلو من قصصٍ نَسَجَ الخيال خيوطها، وجمع بين عناصرها وأحداثها ... ولن يستطيع القارئ الأريب، مهما تكن درجة ذكائه، أن يفرِّق بين هذه وتلك.

كان بوسعي أن أكتب القصص كلها من الخيال البحت، ولكني توخَّيت أن يكون الجزء الأكبر منها من الواقع الحقيقي؛ إذ كما يقولون: «الحقيقة أشد تأثيرًا في النفس، وأكثر إمتاعًا من الخيال.»

كان كتابي رقم ١٢٢ عن مسرحيات (أيسخولوس) ... ذلك الكتاب المسرحي الإغريقي القديم ... وإنه ليشرفني أعظم شرف، ويرفع هامتي عالية، أن أُفيد القارئ بأنني حرصت على أن يتضمن ذلك الكتاب ترجمة جميع مسرحياته التي كتبها منظومة باللغة اليونانية القديمة ... وتعتبر ترجمتي تلك هي الترجمة الأولى في العالم العربي كله.

أما كتابي رقم ١٢٣، فترجمة لعشرات من القصص القصيرة العالمية، وخصوصًا الأمريكية والإنجليزية.

والآن، ها أنا ذا أقدم كتابي رقم ١٢٤. وهو كما ترى، ليس له ناشرٌ، أي أنني طبعته على نفقتي الخاصة، ومن دخلي المتواضع المحدود ... إيمانًا مني بأنه من واجب صاحب الرسالة ألَّا يتخلى عنها ... أحَبُّ شيئين إلى نفسي وقلبي، هما: القلم والمطابع ... فلو سلبني اللصوص كل ما أملك، وتركوا لي القلم، ما ذرفت عيناي قطرة دمعٍ واحدة ... ولو أن الحياة جرَّدتني من جميع المتع، ما اهتممت ما دامت تركت لي متعة دخول المطابع، ومشاهدة الآلات، ودولاب العمل يدور فيها مُحدثًا ذلك الصوت الموسيقي العذب الذي يشنف أذني بجرسه السمعي الجميل، بصورة لم يعرفها نوابغ الموسيقيين سواء في الشرق أو في الغرب ... أحس، أيها السادة، بأنني أرقص على وقع تلك الأنغام، أروع مما ترقص أبرع راقصةٍ ... أرقص من كل قلبي وأنا أسمع صوت آلات الطباعة وهي تدور وتدور ... تطبع الحروف والكلمات والعبارات.

سوف أحرص على أن أذكر رقم كل كتابٍ جديدٍ يصدر لي ... فهذا شرفٌ أخلعه على نفسي، وأريدك، أيها القارئ الأديب، أن تشاركني إيَّاه، إذ هذا حقٌّ من حقوقي، خشية أن يُخطئ العدَّاد فيما لا يمكنني أن أُخطئ في عده وإحصائه.

وختامًا، أتقدَّم بالشكر لصاحب الآلاء والنعم الذي علم الإنسان ما لم يعلم، على كل سطر ساعدني في كتابته، وعلى كل قصة انتهيت من تأليفها بمعاونته، وعلى كل

كتاب قدَّرني على طبعه وإظهاره في حيز الوجود وبين يدي القُرَّاء المحبوبين، على نفقتي ومن عرَقي وقُوتِي، إيمانًا منِّي بقولهم: «المر الذي يختاره لنا الرب، خير من الحلو الذي نختاره لأنفسنا.» ... وقولهم: «بفلوسك، بنت السلطان عروسك.» و«حبيبتي في السما، كيف الوصول إليها ... شخشخ لها بالذهب تنزل برجليها.» ... وقولهم: «بارك الله فيما نفع وانتفع.» ... و«تمجيد الناس يولد للمرء البذخ وتعاظم الفكر.» و«تعب الجسد من كثرة القراءة ينقِّي العقل.»

وكذلك إيمانًا منِّي بقولهم: «ربنا يجعل بيت المحسنين عامرًا دائمًا.» وبقولهم: «رأس الحكمة مخافة الله تعالى.» وقولهم: «فليعوِّض الله صبرك خيرًا.» وقولهم: «رحم الله امرأً عرَف قدر نفسه.»

وبعد هذا، فهل أطمع، يا قارئي الأصيل، أن تجاملني، ولو بابتسامة أو دمعةٍ واحدة عقب انتهائك من قراءة كل قصة في هذا الكتاب ... وطوبى لصانعي السلام، فإنهم أبناء الله يُدعَون.

والله ولي التوفيق.

أمين سلامة

خرج ولم يعد

علي موظف بسيط بوزارة التربية والتعليم، وهو كذلك بسيطٌ في معيشته وتفكيره. يعتقد تمامًا في الخرافات والخزعبلات، فلا يسافر أبدًا في يوم الأربعاء إيمانًا منه بأنه لو سافر في ذلك اليوم، لا بد أن يُصيبه مكروه. وإذا خرج من بيته لقضاء حاجة، ونادته زوجته أو أحد أولاده، عاد إلى بيته ولم يخرج، إذ يعتقد أن تلك الحاجة لن تُقضى. وهو، علاوة على ذلك، لا يجلس في مقهًى أو يذهب إلى نادٍ، بل من باب بيته إلى عمله، ومن عمله إلى بيته، أي أنه من النوع المُسمَّى «من الباب للباب».

في أحد أيام الجمعة جلس علي في داره، وأخذ يتصفَّح جرائد الصباح، فوقعت عينه في باب «الحوادث» على عنوان أثار انتباهه؛ إذ قرأ «خرج ولم يعد»، فهزَّ رأسه وأسنده على راحتيه، وراح في تفكيرٍ عميقٍ، يقول لنفسه: لا حول ولا قوة إلا بالله، أين ذهب؟ هل تاه؟ هل خُطف؟ هل وقع في بالوعةٍ مفتوحةٍ؟ هل هاجر وركب البحر؟ هل انتحر؟ هل صدمته سيارة ونقله رجال الإسعاف إلى حيث لا أدري؟ ثم تذكَّر حوادث كثيرةً مماثلةً قرأ عنها أو تعرض لها بعض مَعارفه، فزادت في بلبلة أفكاره وجعلته يُكلِّم نفسه، ويضرب كفًّا فوق كفٍّ.

تصادف مرور زوجته «أم محمد» أمامه فأبصرته على هذه الحال، فسألته: «أراك تهزُّ رأسك ذات اليمين وذات الشمال، وتهذي بألفاظ غير واضحةٍ ولا مفهومة، كمن يتعجب من حالٍ أو يشغل باله أمرٌ، فماذا يُهمك؟»

لم يرد علي على زوجته، واستمرَّ يمط شفتيه، ويأتي بحركاتٍ غريبةٍ كمن به مس.

فسألته زوجته مرة أخرى: «ما الخطب يا علي؟ هل هناك ما يؤلمك أو يُثير حفيظتك؟ أنا زوجتك، ومن واجبي أن أُسري عنك وأطمئنك.»

قال بعد لأي: «اقرئي هذا الذي حدث أمس ... ماذا لو أن محمدًا خرج ولم يعد، ماذا تكون حالنا، وإلى أين يتجه تفكيرنا، وهو ولدنا البكر؟»

فصرخت أم محمد، تقول: «فأل الله ولا فألك يا علي ... أعوذ بالله من كلامك الأخرق وتفكيرك السقيم ... هل جُننت يا رجل؟»

فقال بعد أن هدأت ثورتها بعض الشيء: «ما قد يتعرض له الآخرون، قد يحدث لنا ... أم تعتقدين أن لدينا تمائم تمنع عنا التعرُّض للأخطار؟»

فصرخت أم محمد قائلة: «ماذا دفعك إلى مثل هذا التفكير الأحمق؟ أغلب الظن أنك لست في وعيك يا علي ... لعلك واقعٌ تحت تأثير المخدِّرات.»

فقال لها في هدوء: «ما لها المخدرات؟ أفاضل الناس هم الذين يتعاطون المخدرات، تُنعش أمزجتهم، وتُذهب العقول، وتصحب الإنسان إلى عالمٍ آخر يختلف تمامًا عن هذا العالم. عالمٌ كله مرحٌ ومسرَّات ولذات، فينسى المرء همومه وأوجاعه ومشاغله.»

قالت أم محمد: أَفهم من ذلك أن عندك همومًا وآلامًا، تُعاني منها وتتعذب ... ترى من السبب في هذه الهموم والأوجاع ... أهو العمل، أم والدتك المريضة، أم أخوك العاطل؟

قال: وما دخل والدتي وأخي في همومي وآلامي، وما يشغل بالي؟

قالت: إذن، هو العمل ... أما زالت علاقتك برئيسك سيئةً، ويتربَّص بك في كل صغيرةٍ وكبيرةٍ فيُحاسبك عليهما حساب الملكين؟

قال: لو كان العمل هو سبب همومي، لتغلَّبت عليه، حتى ولو وصل الأمر إلى أن أتركه.

قالت: اتركوا ذاك واسمعوا هذا! كيف تترك العمل وتقبع في دارك عاطلًا، واليد البطَّالة نجسةٌ ... ومن أين نعيش والسماء لا تمطر ذهبًا ولا فضَّة ... أتريد أن يقف حالنا؟

قال: ومن قال لك إن حالنا ماشٍ؟ نحن لا ننال لقمة العيش القَفَار إلا بشق الأنفس، بينما يتمتع كثيرون غيرنا بكل ما لذَّ وطاب، وينفقون الملايين بدون حساب.

قالت: أتقصد أن تقول إنك بَرِمٌ بحياتك ومعيشتك، وإنك لهذا السبب تبدو مهمومًا؟

قال: هو ذلك يا أم محمد ... لأول مرة تقولين الصدق، وتفهمين ما يعتمل في داخلي!

قالت: هذا كلامٌ غريبٌ يا علي، يزعجني ويثيرني. لم يسبق أن سمعت منك مثل هذا القول ... رغم أنني لم أفهم تمامًا ما تقصد.

قال: وكيف تفهمين ما دمت تتظاهرين بأنك لا ترَين ولا تسمعين ولا تفهمين ... أنت دائمًا كالأصمِّ في موكب الزفاف.

قالت: أرى ماذا، وأسمع ماذا، وأفهم ماذا؟ أنت الذي لا تفهم ما تقول، ترصُّ الألفاظ رصًّا بدون معنى، كما يرصُّ البنَّاء الطوب ... لقد تأكدت الآن أنك لست في وعيك ... لا بد أنك تحت تأثير مخدِّرٍ، لعنه الله، ولعن من علَّمك إيَّاه.

قال: قلت لك ألف مرةٍ، لا تتدخلي في شئوني الخاصة. أنا رجل، ولي مطلق الحرية أفعل ما أشاء ... ومنذ متى تتدخل النساء في شئون الرجال؟

قالت: أنا شريكة حياتك، ولي الحق في أن أقوِّم اعوجاجك. لست أعزب. وحياتك ليست لك، بل هي لزوجتك وأولادك قبل أن تكون لك. هذا السم الذي تتعاطاه سيؤدِّي بنا إلى أن نمدَّ يدنا للسؤال ونستجدي الناس.

قال: دعينا مما لا طائل تحته، وتكلَّمي في لبِّ الموضوع، لا تزوغي من الحقيقة ... رغم أن الحقائق غير خافيةٍ، وتراها كل عين، حتى في ظلام الليل.

قالت: ما هذا الذي تتفوه به يا علي ... أية حقائق تلك التي تتكلم عنها، والتي يبدو أنك أنت وحدك الذي تراها؟

قال: سلامة عينيك ... هل أعيش مع زوجة عمياء العين والقلب تحت سقفٍ واحدٍ؟

قالت: قل حقائقك كلها، ولا تكتم منها حقيقةً واحدةً ... لأنني بدوري، عندي حقائق أريد أن أذكرها، إذ طفح الكيل، وبلغ السيل الزبى.

قال: يا لها من فلسفةٍ كاذبةٍ ... أتظنين نفسك، يا ست نفوسة، قد حللت مكان نبوية موسى؟ عن أي شخصٍ هذه الحقائق التي تتكلمين عنها؟ ... لا تقولي إنها عنِّي.

قالت: من أكل لحمًا نيئًا وجعه بطنه. من أين عرفت أن تلك الحقائق عنك؟ هي فعلًا عنك وليست عن أي أحدٍ غيرك.

قال: معنى هذا أنه قد أصبحت هناك حقائق تخصُّني، وتتمسكين بها علي، في حين أن عندي آلاف الحقائق ضدك، ولا تخصُّ أحدًا سواك.

قالت: ولم لا تكون هناك حقائق تخصُّك؟ ... لكل إنسانٍ في هذه الدنيا حقائق تنصره، وأخرى تخذله، وما من أحد يرى عيبَ نفسه.

قال: وحقائقك التي تحتفظين بها عنِّي، هل تنصرني أم تخذلني؟

قالت: لن أجيب على سؤالك هذا إلا بعد أن تصارحني بحقائقك عني، وهل هي حقائق في صالحي أم حقائق ضدي.

قال: بل هات ما عندك، أنت أولًا ... حتى يكون كيلي من نفس كيلك.

قالت: وهل بيننا كيل ومكاييل؟

قال: نعم، ألم يكن حبُّك إيَّاي في بداية تعارفنا، يُقاس بالمكاييل؟

قالت: هذا موضوعٌ عفا عليه الدهر، ومع كلٍّ، كنت أردُّ لك مكاييلك بمكاييل مماثلةٍ، لعل وعسى!

قال: لعل وعسى ماذا؟

قالت: أن تتزوجني، وأعيش في كنَف رجلٍ.

قال: أهكذا كان تفكيرك يومذاك؟

قالت: هو ذلك … فكل فتاةٍ تودُّ لنفسها أن تتزوج وتكوِّن أُسرةً. هذه سُنَّة الله في خلقه. وقد وجدت فيك الزوج الملائم لي، ويقيني العَنَس والوحدة وسخرية الناس.

قال: وهل حققت لك كل ذلك؟

قالت: إلى حدٍّ ما، فقد قتلت وحدتي بأطفالي الثلاثة: محمد وحسن وسامية.

قال: ألم أنقذك من سخرية الناس!

قالت: لا أظن … فجميع معارفي يسخرون منِّي إذ قبلتك زوجًا لي.

قال: فلتُقطع ألسنتهم … أنا سيد الرجال، وما كنت تستطيعين العثور على زوجٍ أفضل منِّي … يا لك من امرأةٍ مارقةٍ حيزبون! … لقد تأكدت الآن أنك تتعاطين الحبوب التي تُذهب العقل والفكر والصواب.

قالت: كلَّا، وألف مرةٍ كلَّا. أنا لا أتعاطى مخدرات، وإنما أنت الذي تتعاطاها. وحتى مع فرض المستحيل، من شابهت زوجها فما ظلمت.

قال: والله إن لم تكفِّي عن مثل هذا الكلام، وتقطعي لسانك، فسأخرج من هذا البيت على ألَّا أعود إليه أبدًا.

قالت: إن كنت رجلًا من ظهر رجلٍ، فافعل ما تُهددني به … أنت في البيت كعدمك.

وهكذا نهض علي من كرسيه، وأقسم على أنه سيخرج ولن يعود … وانصرف فعلًا.

توبة

سعاد فتاةٌ على قدرٍ وافرٍ عظيمٍ من الجمال الفذِّ، تبارك الخلَّاق فيما خلق، ذات قدٍّ ممشوقٍ جذابٍ، لا هي بالطويلة الفارعة ولا هي بالقصيرة المَقيتة. عيناها زرقاوان واسعتان تزينهما رموشٌ طويلةٌ سوداء، وهي ناصعة بياض البشرة، مورَّدة الوجه، حاجباها مزجَّجان، وأنفها قصير مستقيم أقنى، وفمها يكاد لا يتَّسع لإصبع واحدة، وجِيدها طويلٌ أبيض لو أبصرته نفرتيتي لتوارت في مخدعها. وكانت تعلم بما وهبها الله من ملاحة تأسر القلوب، وتجرُّ وراءها موكبًا من المعجبين، فترتدي أفخر الثياب، وتُعنى بأناقتها قبل كل شيءٍ آخر، وساعدها على ذلك ثراء والدها الذي كان لا يضنُّ عليها بمالٍ. أغدق عليها أغلى الحلي والمجوهرات، وزودها بسيارةٍ مرسيدس من آخر طراز تذهب بها إلى الجامعة. إذا نزلت سارت تتهادى في خُيلاء، لا تردُّ على تحية زملائها وزميلاتها إلا بإيماء؛ إذ كانت متغطرسةً متعاليةً لا تكلِّم أحدًا من الطلبة والطالبات إلا بالقدر الضروري. تغار منها كل الفتيات لما حباها به الله من فتنةٍ جمَّة وجاذبية فذَّة.

تدخل سعاد قاعة المحاضرات فتجلس في المقعد الأمامي المواجه لذلك المعيد البالغ الأناقة مثلها. وقد لاحظ كل أترابها ذلك، فكانوا يُفسحون لها الطريق إلى ذلك المقعد الذي كانت تكتب عليه اسمها. اختارت سعاد هذا المقعد بالذات؛ إذ كان يعجبها ذلك الشاب المُعيد المحاضر، الذي ينضح قوةً وصحةً وحيويةً، ويمتاز بتقاطيع وجهٍ متناسقةٍ شديدة الجاذبية. وقد أدرك كثير من الطلاب مدى اهتمام الآنسة سعاد بالأستاذ مجدي سويلم، الذي يُلقي محاضراته في مادة علم النفس، ولاحظوا الإهمال الذي تلقاه سعاد من المحاضر الشاب ذي المستقبل الناصع المرتقب، ولسان حاله يقول: «من يدري بك يا من تغمز في الظلام؟»

تقدَّم ممدوح زميل سعاد منها ذات مرةٍ، عقب إحدى محاضرات الأستاذ مجدي، وسألها بقوله: «أيعجبك الأستاذ مجدي؟»

قالت: «ولم لا؟»

قال: «أراه غامضًا في أجزاء كثيرةٍ من محاضراته.»

قالت: «عندك مذكراته مطبوعة يشرح فيها كل نقطةٍ يتعذر على أي طالبٍ فهمها. وبذا يمكنك أن تستعين بها.»

قال: «هي عندي، ولكنها لا تخلو من الغموض أيضًا.»

قالت: «وماذا تريدني أن أفعل لك؟»

قال: لعلك تُحدِّثينه في هذه النقطة، وتلفتين نظره إليها.

قالت: ولماذا لا تتقدم حضرتك منه، وتلفت نظره بنفسك ... أم تريد أن تستخدم مَثَل القرد والكَستَناء معي؟

قال: وماذا يقول هذا المَثَل؟

قالت: القرد مولعٌ بأكل الكَستَناء المشوية، ولكنه لا يخاطر بإخراجها من فوق النار بأصابعه، فيستخدم مخالب القط في إخراجها.

قال: عسى أن يتقبل الكلام منك بسماحة نفس، وسعة صدرٍ، أكثر مما يتقبَّله منِّي.

قالت: ومن أوحى إليك أنه سيتقبل ذلك منِّي، ولا يتقبله منك أو من أي طالبٍ آخر، أو طالبةٍ أخرى؟

قال: نظراته إليك توحي بأنه يرتاح إلى شخصك.

قالت: أليس بينك وبينه نظرات من النوع المريح؟

قال: آسف يا آنسة سعاد! يبدو أنني ضايقتك بكلامي هذا.

قالت: فعلًا، لأنك تجاوزت حدودك بكثير، وأنا لا أسمح لأي طالبٍ أو طالبة بأن يتمادى معي بأي كلامٍ فيه جرح لإحساسي وتعريض بشخصي. وفضلًا عن ذلك، فإنني لم ألاحظ أبدًا أن الأستاذ مجدي حَدَجَني في يوم ما بنظرة تُخالف نظرته إلى غيري من الطلبة والطالبات الذين بالمدرج!

قال: آسف جدًّا، وسلام!

قالت: مصحوبًا بسلامة الله!

حرَّكت كلمات ممدوح مشاعر سعاد، وفهمت أن الكثيرين يراقبونها في روحاتها وغدواتها، وسوف يتقوَّلون عليها، ويتمادون في تفكيرهم وأقوالهم ... ولذا عولت على أن تترك مقعدها

الأمامي المختار، وتجلس في مقعدٍ آخر بالمدرج، بعيدًا عن الأستاذ مجدي، لئلا تلوك الألسنة سُمعتها.

انتهز ممدوح هذه الفرصة الثمينة، وجلس إلى جوار سعاد في الصفِّ الخلفي من مقاعد المدرج، وراعى أن يتحلَّى بكل مظاهر الأدب والرقة والهدوء حتى كسب احترام سعاد ... كما أن سعاد نفسها وجدت في ممدوح الورقة الرابحة، والوسيلة الناجحة، التي يمكنها أن تلعب بها لإثارة نيران الغيرة في قلب هذا الأستاذ المتغطرس الذي لم يستطع جمالها الفتَّان أن يُحرك عواطفه ولو بنظرةٍ بسيطةٍ إليها.

سعاد امرأة قبل كل شيءٍ، والمرأة إذا صمَّمت على أمرٍ نالته بشتى الطرق، وبمختلف المعاذير. فرأت، بطبيعتها الأنثوية، أن تتجاذب أطراف الحديث مع ممدوح إبَّان المحاضرات، على مرأى ومسمع من ذلك المجدي الذي يطاول بعنقه السماء، لكي تبدو أمامه أنها فضَّلت ممدوحًا عليه ... وفعلًا لاحظ ذلك المحاضر انشغال سعاد عنه وعن محاضراته بالحديث مع ممدوح الطالب.

انتهز الأستاذ مجدي فرصة تحدُّث سعاد مع ممدوح أثناء المحاضرة، فأمرها بأن تكفَّ عن الثرثرة، وبأن تنتبه إلى المحاضرة، وتعود إلى مقعدها الأمامي كالمعتاد. فرحَّبت سعاد بهذا الأمر الصادر إليها، والذي كانت تنتظره، وتعلم علم اليقين أنه لا بد سيصدر إليها، إن عاجلًا أو آجلًا. فأذعنت لأمر أستاذها، وانتقلت على الفور إلى مقعدها الأصلي وهي تتهادى في تيهٍ وخُيلاء.

لاحظت سعاد لأول مرةٍ، أن عيني الأستاذ مجدي تُطيلان النظر إليها، فعنَّ لها أن تطرق الحديد وهو ساخنٌ، فابتسمت لأستاذها ابتسامةً حلوةً تُذيب الحجر الجُلمود ... فابتسم لها بدوره. وكما يقول المثل: «نظرة فابتسامة فكلام ...» وعلى هذا، لم يبق غير الكلام بعد المحاضرات ... ولم يكن هذا مشكلة عويصة، وسعاد لا تَعدم وسيلة تجرُّ بها الكلام، بلباقتها ودهائها وجاذبيتها.

سارت سعاد مع مجدي إلى حجرة المدرسين، حيث وطَّدت علاقتها به، وأبدى هو إعجابه بجمالها وأناقتها، فاعتزَّ بصداقتها، واعتبر نفسه قد ملك زمام الخافقَين، وأن الدنيا قد دانت له ... أما سعاد فآثرت، بدورها، أن تغلق فمها عمَّا يدور بداخلها، ويعتمل في صدرها، من مشاعر مماثلة فيَّاضة.

ما كادت سعاد تخرج من حجرة المدرسين، حتى وجدت ممدوحًا ينتظرها عند باب المبنى، ففاجأها بقوله: «يبدو، يا آنسة سعاد، أن الأمور بينك وبين الأستاذ مجدي قد تطوَّرت بشكلٍ رهيب.»

فقالت: ماذا تقصد؟

قال: أقصد استضافته إياك في حجرة المدرسين ... تُرى، ماذا قال لكِ، وماذا قلتِ له؟!

قالت: وهل يهمُّك الحديث الذي دار بيننا؟ حقًّا، كم أنت فضولي متطفل!

قال: هل قبلت دعوته إيَّاك وستلتقيان قريبًا؟

قالت: نعم قبلتها، وسنلتقي معًا غدًا، إن شاء الله.

قال: الله ... الله ... يا لها من صراحةٍ خارقة، وجرأةٍ متناهية! ... إذن، فهل لي أن أدعوك بدوري، إلى تناول كوب من الشاي معي، في مَقصِف الكلية؟

قالت: بأية مناسبةٍ تدعوني، ومنذ متى أقبل دعوات الزملاء؟ ألا ترى، يا سيد ممدوح، أنك تتدخل في شئوني الخاصة بغير وجه حق؟

قال: أدعوك بصفتي زميلك بالكلية، وعلم النفس يتطلب الاحتكاك بالنفوس، لكشف حسناتها وعوراتها.

قالت: وماذا تريدني أن أكتشف فيك؟

قال: ما يطيب لك ... هذه فرصةٌ لي كي أكتشف، وفرصةٌ لك كي تكتشفي.

قالت: ولأي غرضٍ تريد أن تكتشف أموري يا بارد ... والله إنك لسنكوح ثقيل الدم.

قال: مرحى! مرحى! هذا أول اكتشاف لك.

قالت: وليس آخر اكتشاف، لأنك أيضًا متطفلٌ، وغيورٌ، وساذج الفكر والحكم.

قال: حسنًا يا آنسة سعاد، وماذا أيضًا؟

قالت: أنت سافلٌ منحطٌّ ووضيعٌ، الرجال كلهم سفلة.

قال: وهل يدخل الأستاذ مجدي دائرة الرجال السفلة؟

قالت: بما فيهم الأستاذ مجدي ... فقد دعاني إلى تناول الشاي معه في حديقة الحيوان، وأنت تدعوني إلى تناول الشاي معك في مَقصِف الكلية ... كلكم ذئاب ... وكلكم بأهداف دنيئةٍ واحدة ... كلكم في اصطياد المرأة صيَّاد واحد.

قال: يبدو أنك وصلت إلى حقائق جديدة في علم النفس، تختص بعلاقة الرجل بالمرأة.

قالت: نعم، وصلت ... ولذلك قررت أن أُكرِّس كل حياتي لدراسة نفوس البشر من الرجال، عسى أن يأتي يوم أعدِّل فيه رأيي في نفوسهم المعوجَّة، وأهدافهم الملتوية، وتفكيرهم السقيم. والآن، سلام ... وأرجو ألَّا تتحدث معي بعد ذلك ... كما أنني ... والله يعلم ... لن أتحدث مع الأستاذ مجدي، مهما تضطرني على ذلك الظروف ... توبة!

عقاب السماء

– ألو ... مَن المتحدث؟

– صديقك عبد الرحيم.

– لعلك عاتبٌ عليَّ؛ إذ مضت عشرة شهور لم أرك فيها أو حتى أسمع صوتك، وذلك منذ أن كنت في زيارتك آخر مرة.

– نعم، هذا صحيح، وبالضبط كأنك تعد الشهور بعد زيارتك إيَّاي ... وقد خُيِّل إلي أنك سافرت إلى أي بلدٍ عربيٍّ لتحسين دخلك ومعيشتك.

– كنت في سفر، ولكن ليس كما تظن، بل في متاهات لم أكن أتوقعها أو أحلم بها.

– لست أفهمك ... إذ تتكلم بألغاز صعبة الفهم. ماذا تقصد بقولك «متاهات»؟

– يؤسفني، يا أستاذ عبد الرحيم، أن أُخبرك بأن زوجتي، التي هي ابنة خالي، قد توفيت فجأةً، وتركت لي أربعة أولاد ... ومن ثم تجدني في متاهاتٍ أيِّ متاهاتٍ، لم أكن أتصوَّرها ولم تخطر على بالي ... والأدهى من كل ذلك أنني لم أكن مستعدًّا لها.

– البقية في حياتك، وهذه حال الدنيا. كلنا إلى ذلك المصير، وليكن الله معك.

– ماتت فجأةً دون مرضٍ أو أية علامة تُنذر بقرب رحيلها ... وربما تتذكر، يا أستاذ عبد الرحيم أنني كنت أحبها جدًّا؛ إذ نشأنا معًا منذ نعومة أظافرنا، وتزوجتها، وكنت أعتبرها كشخصي تمامًا ... لم تقل لي، طول حياتها «لا» أبدًا، عمرَها ما عارضتني في فكرةٍ أو أمر، ولم تقصِّر إطلاقًا في تربية الأولاد تربيةً صحيحة ... عاشرتها كزوجة فلم أحسَّ بأن لي أربعة أولاد، يذهبون إلى المدارس، ويستذكرون دروسهم، ولهم متطلباتهم من مأكلٍ وملبسٍ وترفيه وانتقالات ... كانت تقوم بكل هذه الأمور، كي أتفرغ أنا لعملي في الإخراج التليفزيوني ... وفجأة، ذهب كل شيءٍ في حياتي وتوقَّف ... لم أكن أتصور ذلك العبء الضخم الذي تقوم به دون تأففٍ ولا تبرمٍ، ولا شكوى.

– كيف ذلك يا أستاذ صابر؟

– نعم. خلا البيت منها، ووجدتني أواجه مشكلة الأولاد ... ولا أحد يخدمهم أو يخدمني أو يحادثني ويلاطفني ويشجعني، ويسرِّي عني عندما أكون مهمومًا ... فجأة، وجدت نفسي مسئولًا عن الأولاد الأربعة، أُعِدُّ طعامهم وشرابهم، وألبسهم ثيابهم ... وهكذا أُشرِف داخل المنزل وخارجه، وهم يلعبون في الشارع، أو وهم في طريقهم إلى المدرسة، بل وهم في داخلها أيضًا ... تغيَّر كل شيءٍ في حياتي.

– إلى هذا الحد؟

– بل وأكثر منه؛ لقد تشتتت أفكاري تمامًا، واضطرب دولاب عملي بالتليفزيون، وتوقفت عن الإخراج، وطلبت من المسئولين أن يُسندوا عملي إلى مخرجين آخرين، إلى أن يعود إليَّ صوابي، وأعرف رأسي من قدمي.

– ألم يكن بمقدورك، يا أستاذ صابر، أن تترك الأولاد عند جدتهم أو جدهم، من أبيهم أو من أمهم؟ ألم تفكر في ذلك؟

– من سوء حظِّي، أن كلهم في عداد الأموات.

– أليس لك إخوة، أو أخوات؟

– لي أختٌ واحدةٌ متزوجة وتحمل عبء تربية ستة أطفال ... كما أنها لا تُقيم هنا بالقاهرة، وإنما في سوهاج، وليس من المعقول أن تترك زوجها وأولادها، وتأتي إلى القاهرة لتربي أولاد أخيها، كما لا يمكنها تربية عشرة أولاد، إذا فكرت في إرسال أولادي إليها.

– طبعًا، من المحال استدعاؤها، أو إرسال الأولاد إليها ... هذا ضربٌ من الاستحالة. وكيف تصرفت في مشاكلك التي تراكمت وتزاحمت عليك بلا رحمة ولا هوادة؟

– تقوم بيني وبين أولادي معارك لا تنتهي.

– تقول معارك! إلى هذا الحد؟

– نعم، إلى هذا الحد ... فهم، كما يبدو، لا يعرفونني كما يجب ... كانت أمهم تعرف جميع أسرارهم وكيف تسوسهم، وكان كل كلامهم معها، ومفاتيح مشاكلهم مع المرحومة ... ولذلك فوجئت بتصرفات لم أكن أتصوَّر أنني سأجابهها.

– مثل ماذا؟

– ماذا تفعل، لو كنت مكاني، ورجعت إلى المنزل فوجدت أحد أولادك قد خلع ملابسه كلها ووقف عاريًا كما ولدته أمه في عزِّ هذا البرد الشبيه بالزمهرير، وبين إخوته بنت؟

– طبعًا، طار صوابك خوفًا من أن يُصاب الصغير بالتهاب رئوي، قد يودي بحياته.

– فعلًا، طار صوابي، فانهلت عليه ضربًا بأقرب عصا وجدتها، فأحدثت به جرحًا غائرًا فوق الحاجب، وكانت مأساة، واستدعى الأمر نقله بسرعةٍ إلى أقرب مستشفى حيث عُمِلت له بعض الغرز.

– أخطأت يا أستاذ صابر، ويكون خطؤك كبيرًا إذا عالجت مشاكلك مع الأولاد بالضرب بالعصا، فهذا قد يولد أوخم العواقب، وقد تصحو يومًا في الصباح فلا تجدهم في البيت، إذ يتَّفقون على الهرب من قسوتك ... لاحظ أنهم يقارنون بين معاملتك ومعاملة المرحومة لهم.

– أعرف أن استخدام العصا في تربية الأولاد خطأٌ جسيم، ولكنهم يستفزونني بحيث أفقد صوابي وأتهوَّر، وأجد نفسي أُشبعهم ضربًا بكل ما تمتد إليه يدي من عصا أو مِسطرة أو ما إلى ذلك، لدرجة أنني أفكر في شراء سوطٍ لأردعهم.

– غدًا، ستقول لي إنك تفكر في شراء سلسلة حديدية تضربهم بها! ... ما هذا يا أستاذ صابر؟ ... لا ... لا ... أرجوك ألَّا تشتري سوطًا، وحاول أن تكسب ودَّهم بالمعاملة الحسنة ولين الجانب.

– إنهم لا يسمعون كلامي يا أستاذ عبد الرحيم، وكثيرًا ما أعود من عملي فأجدهم يلعبون في الشارع مع الأولاد الأوباش، فيتعلمون منهم الأخلاق السيئة والألفاظ البذيئة، وقد تصل بهم الحال إلى ما هو أسوأ من كل هذا. وفضلًا عن ذلك أجد ملابسهم قد اتَّسخت وتمزقت، وهذا دليلٌ على العراك مع أولئك السفلة.

– أعلم أن هذه أوضاع لا تسرُّ.

– وما قولك في أنني كثيرًا ما عُدت إلى المنزل فلاحظت اختفاء أشياء كثيرةٍ ثمينةٍ، وعلمت منهم أنهم أدخلوا بعض أصحابهم ليأتنسوا بهم؟

– هذه أمورٌ شديدة الخطورة على أخلاق أولادك.

– تراودني فكرة الزواج مرة أخرى، ولكني لا أحتمل هذه الفكرة.

– ولماذا؟

– أين هي الفتاة التي عندها استعداد للزواج برجل مُقيَّد بأربعة أولاد أكبرهم في الصف السادس الابتدائي ... وأصغرهم لم يُكمل سنة ونصفًا من عمره.

– مَن جَدَّ وَجَد ... ابحث عسى أن تجد ذات القلب الرحيم ... الدنيا ما زالت بخيرٍ ... ألم يجد محمود الشرقاوي زوجة لنفسه، وأُمًّا لأولاده الثلاثة، في مسلسل «الحب والصبَّار»؟

– وماذا كانت النتيجة يا أستاذ عبد الرحيم … تركت الزوجة البيت بعد أن ذاقت الأمرين، وكفَّرت معيشتَها جدةُ الأولاد … هذا فضلًا عن أن ما رأيناه على الشاشة، ليس إلا مجرد تمثيل في تمثيل، لا صلة له بالواقع.

– أتقول هذا، يا أستاذ صابر، وأنت مخرجٌ تليفزيوني؟

– نعم، أقوله، ومستعدٌ لأن أُجاهر به على الملأ … فما نراه على الشاشة الصغيرة والكبيرة ليس سوى تخريف في تخريف، وأفكارٌ وليدة تأليفٍ في تأليفٍ، لا تمتُّ إلى الواقع بصلة، ولا يمكن الأخذ بها أو القياس عليها في الحياة الواقعية … هذا كله، كما يقولون: «ضحك على الذقون.»

– ومع ذلك، أراك تحب عملك الذي كله «ضحك على الذقون». وكان الأولى أن يصدر مثل هذا الكلام من شخصٍ آخر، غير مخرجٍ تليفزيونيٍّ أو سينمائي.

– لذلك أعتقد أن الله، جلَّت قدرته، حرمني نعمة الحياة الهانئة، وهو الآن يعذبني بموت زوجتي الحبيبة، وبتمرد أولادي، وعدم طاعتهم أوامري، أو قبولهم حق أبوتي. نعم، أنا أعترف لك، يا أستاذ عبد الرحيم، أن هذا عقاب من الله.

– أنت رجلٌ مؤمنٌ يا أستاذ صابر، ولذا تعتبر ما حدث لك عقابًا من السماء.

– نعم، هو كذلك يا سيدي، ولذا سأُحجم عن الزواج مرة أخرى، حتى لا تتكرر المأساة.

عذراء القرن العشرين

سافرت كعادتي في كل عامٍ إلى خارج مصر، إلى اليونان الحبيبة، تلك البلاد، مهد الفلسفة والهندسة والمحاماة، وتتعلق بها روحي، لذا أقضي فيها شهرًا على الأقل في كل سنة، منذ عدة سنوات. وفي هذا العام، مكثت بها ما يزيد على أربعين يومًا.

ما كدت أصل إلى شقتي المتواضعة بجاردن سيتي بالقاهرة، وقبل أن أفتح حقائبي لأُعيد كل شيءٍ إلى موضعه الخاص، إذ لكل شيءٍ عندي موضع، وعندي موضع لكل شيء، كما يقول الفرنسيون، دقَّ جرس التليفون، وما إن رفعت السماعة حتى سمعت المتحدثة في الطرف الآخر، تصرخ وتقول: أخيرًا، عدت بسلامة الله ... ألف ألف حمدٍ لله على السلامة.

– أهلًا، أهلًا ... وشكرًا.

– مضى أسبوع كامل، وأنا أتصل بك يوميًّا، بدل المرة عشرات المرات، بدون مبالغةٍ، ولكن جهودي كلها ذهبت أدراج الرياح ... متى وصلت؟

– منذ نصف ساعة ليس غير.

– عندي لك أخبارٌ سارة.

– والله! هات ما عندكِ.

– يسرني أن أزفَّ إليك بشرى نجاح تلميذتك النجيبة «ناهد» في امتحان التوجيهية.

– أحقًّا ما تقولين؟ ... ألف مليون مبروك، إذ نجاحك هذا يُعتبر معجزة.

– أتقصد لأنني كنت مريضةً طوال أيام الامتحان وكان يُغمَى علي وأتقيَّأ كثيرًا، وامتحنوني أكثر من مرةٍ في لجنةٍ خاصة، رأفة بحالتي الصحية؟

– تمام يا ناهد! هذا هو بالنص، ما أعنيه وأقصده ... كنت في حال يُرثَى لها، وكان على والدتك العجوز أن تصحبك إلى اللجنة كل صباحٍ، وتنتظر إلى أن تعود بك إلى البيت بعد انتهاء الامتحان، رغم مرضها بالقلب وبالروماتيزم الشديد في المفاصل.

– ساعدني مرضي على النجاح، لأنهم ساعدوني كثيرًا، رحمة بي، وتركوني أغش من الكتاب في مادة التاريخ. ولولا ذلك لما أمكنني أن أُجيب على سؤالٍ واحد، في هذه المادة بالذات.

– سبق أن أخبرتِني بهذه الواقعة، ولم أُصدقك، إذ تعليمات الوزارة صريحة جدًّا بمنع الغش في الامتحانات، وعقوبة ذلك صارمةٌ جدًّا بالنسبة للطلبة الذين يغشون أو يحاولون الغش، كما هي صارمة أكثر بالنسبة لملاحظي اللجان الذين يحدث الغش في لجانهم.

– خليها على الله … كان الغش في لجنتنا «على ودنه»، والبراشيم تخرج علنًا، وعلى عينك يا تاجر.

– الحمد لله أنك نجحت … والعبرة بالنتيجة.

– وعندي لك خبرٌ سارٌّ آخر … حصلت على مجموعٍ يسمح لي بدخول كلية الآداب، قسم علم النفس.

– آخر عظمة! … وهل بوسعي أن أعرف ذلك المجموع الذي يؤهِّلك لتلك الكلية؟

– حصلت على ٧٦٪.

– وما درجتك في اللغة الإنجليزية؟

– يجب أن تفخر بي، إذ رفعت رأسك عاليًا إلى عَنان السماء، فلولا دروسك وشرحك الواضح لي لما حصلت في اللغة الإنجليزية على ٥٦ من ٦٠.

– أكاد لا أُصدق أُذني الملاصقة للسمَّاعة … هذه درجة لا يحصل عليها إلا طلبة مدارس اللغات … ولا تحصل عليها طالبةٌ في مدرسة ليلية، وتتقدم للامتحان مع طلبة المنازل … ولا بد لي من الحضور لزيارتكم لأُهنئك شخصيًّا، وأهنئ أباك وأمك بهذا النجاح الباهر.

– أهلًا وسهلًا، ومرحبًا … ولكنك لن تعرفني.

– ولماذا؟ ما معنى هذا الكلام؟

– تلميذتك تضخمت، وانتفخت بعض أجزاء من جسمها، حتى صارت كالكرة!

– وهل هذا التضخم بسبب فرحتك بالنجاح، أم من مضاعفة كمية الطعام؟

– لا أعتقد السبب الأخير، إذ لا أجد شهية للطعام، باستمرار.

– على فكرة، هذه السِّمنة من مصلحتك، لأنك كنت نحيفةً جدًّا.

– ما هذا الكلام الغريب الذي تقوله؟

– وما الغرابة؟ ألم تكوني نحيلة القد مثل «عود القصب»؟

– عندك حقٌّ، ولكن ليس إلى هذا الحد. ولكن ما قولك في أن السمنة كلها في بطني وحده، الذي صار كالبطيخة اليافاوية!

– ولِم بطنك بالذات؟

– هذا هو الغريب في حالتي.

– فعلًا، هو شيءٌ غريبٌ ... لعله انتفاخ بسبب تكون غازات في البطن ... وإني لأسمعهم يقولون «حمل كاذب» ... وأعراضه كلها واضحةٌ، وتنطبق على ما تصفين. ومع ذلك، فهو فعلًا كاذب!

– ابصق من فمك يا رجل ... أي حملٍ هذا، وأنت تعرفني فتاة عذراء، لم يمسسني رجل.

– هذه حقيقةٌ، أنا على يقين تامٍّ منها. ولكن كيف لي أن أُفسِّر تضخم بطنك وحده دون سائر أعضاء جسمك؟ كما أنني لم أقل إنك حامل.

– أنا نفسي حيرى، وقد لاحظت والدتي تضخم بطني، ولكنها لم تتكلم ولم تعلِّق بشيء.

– ولكن لا بد أن أبدت أمك رأيًا في تضخم بطنك وحده، حتى صار كالكرة أو البطيخة كما تقولين.

– أمي تعتبر هذا التضخم نتيجة لكثرة الأكل، إذ بعد فرحتي بالنجاح صرت آكل كثيرًا، زيادة على الوجبات المعتادة ... لا همَّ لي سوى الأكل. ولكني في الأيام الأخيرة، كما قلت لك، فقدت الشهية للطعام، وحتى خروجي إلى الشارع صار نادرًا جدًّا.

– وهل يرجع عدم خروجك إلى الشارع، إلى خوفك أن يرى الناس بطنك البارز، أقصد أن يروك «بكرش»؟

– هو ذلك، وغير ذلك.

– ماذا تقصدين بقولك «وغير ذلك»؟

– مصعد بيتنا متعطِّل منذ شهر تقريبًا وما زال متعطلًا، ونحن نقطن في الدور السابع، وصعود السلم صعب، ولا سيما مع تضخم بطني، الذي زاد في وزني. وهذا يمنعني، كما يمنع والدي، الخروج أو الذهاب إلى أي مكانٍ، إلا للضرورة القصوى.

– هل عرضت نفسك على طبيب؟

– لا أعتقد أن الأمر يستدعي طبيبًا، فأنا لا أحس بأية آلام.

– إن شاء الله، يكون خيرًا. غير أنني متألمٌ جدًّا لتعطل المصعد. فهذه مشكلة لا يُستهان بها، خصوصًا لمن يسكن في الأدوار العليا كالسابع والثامن.

– على فكرة، ربما سمعت أو قرأت عن الحادث الذي وقع لبوَّاب عمارتنا، لأنه حدث عقب سفرك بأيامٍ محدودة، والجرائد المصرية تصل إلى اليونان. وقد نشرت الخبر معظم الجرائد الصباحية.

– لا، لم أسمع به ولم أقرأه، ماذا حدث؟

– قطع المصعد رأس البواب، وفصله عن جسمه.

– يا إلهي! أحدث هذا لعم حسن بواب منزلكم؟

– نعم، حدث له هذا ... أدخل رأسه من فتحة ليرى المصعد ويحدد مكانه. فما كاد يدخله حتى أكله المصعد. ومنذ ذلك الحادث والمصعد معطَّل رغم أن المباحث انتهت من تحقيقاتها، وتأكدت النيابة من عدم وجود جريمةٍ في ذلك الأمر.

– لا بد أنك حزنت كثيرًا على موته.

– بالطبع حزنت عليه جدًّا إذ كان يُحبني كثيرًا ويقوم بخدمتي وخدمة أسرتي، ويقضي طلباتنا بسرعةٍ، ولذلك كانت يدي سخيَّةً معه.

– أنا واثقٌ من حزنك عليه، لست أنت وحدك، بل جميع سكان عمارتكم بلا استثناء، إذ كان رجلًا بالغ الطيبة ونشيطًا رغم كِبر سنِّه. وأنا شخصيًّا تألمت لموته إذ مات ميتةً شنيعةً، لا أعتقد أنه يستحقها، لأنه كما يبدو لي، كان رجلًا متدينًا يُراعي الله في أكل عيشه.

– ولغاية الآن ليس عندنا بوَّاب، ولا من يخدمنا، والعبء كله عليَّ وحدي، فلا أخرج إلا نادرًا بالليل لشراء الخبز والفاكهة وما يلزم البيت من أطعمة أخرى. وأمي المريضة بالقلب لا تستطيع صعود السلم ونزوله، لسبعة طوابق.

– وأبوك، أيضًا، لا يمكنه صعود السلم، فهو مريضٌ بأكثر من مرض، كالقلب والروماتيزم والنقرس.

– هو ذلك، ونحن الآن في حالة يُرثَى لها، بسبب موت عم حسن، ونتذكره كلما شعرنا بتعب الصعود والنزول، وكما قال أبو فراس: «في الليلة الظلماء يُفتقد البدر.»

– كان الله في عونكم ... وأستأذنك الآن، وإلى حديث آخر غدًا، للسؤال عن حالك، وتحيتي لوالديك الكريمين.

– وهو كذلك، تصبح على خير.

أويت إلى فراشي؛ لأستريح من وعثاء السفر وأغمضت عيني لأنام، ولكن النوم استحال عليَّ، إذ أخذت أفكر في موضوع الآنسة ناهد، ورحت أستعيد ما صارحتني به، فيما يتعلق بتضخم بطنها، الأمر الذي لا يمكن قبوله بسهولة ... خصوصًا وأن التضخم لم يُصب من جسمها إلا منطقة البطن. وتذكرت أنها في شهر يونيه، عندما كانت تؤدِّي الامتحان، كانت تروي لي أنها كثيرًا ما تُصاب بنوبات من القيء الشديد المتواصل، وكانت رئيسة لجنة

الامتحان تعزلها في لجنة خاصة بعيدًا عن الطالبات الأخريات لئلا تزعجهن بقيئها وتزعج أفكارهن.

رحت أربط بين هذه الأعراض التي تشكو منها ناهد ... وبوضع النقط فوق الحروف، برزت في رأسي فكرةٌ شيطانية، إلا أنها قوية المنطق ... وأخذت أقول لنفسي: ناهد حاملٌ مائة في المائة، ما في ذلك شك. حامل في شهرها الثالث أو الرابع، وهذه أعراض «الوحم» المقرون بالقيء. والآن ظهرت أعراض الحمل من انتفاخ البطن وبروزه.

لم أستطع أن أُمسك يدي عن الاتصال بها هاتفيًّا، مرة أخرى، لأنبهها إلى ما وصلت إليه حالها، كي تتصرف قبل فوات الأوان، ويفتضح أمرها، فتندم ولات ساعة مندم ... والله يعلم ماذا يفعل أبوها بها، وهي وحيدته التي عاش لها ومن أجلها، ويسعده أن يزوجها قبل أن يلقى ربه.

– ألو ... ناهد؟ هل نمت؟

– أبدًا ... كيف أنام وأنا أحسُّ بشيءٍ يلعب داخل بطني؟

– الحمد لله أنه لعب في بطنك، كي تتأكدي من صحة ما وصلت إليه من رأي بخصوص تضخُّم بطنك.

– وما الذي وصلت إليه؟

– وصلت إلى رأيٍ صحيحٍ مائة في المائة ... هل تتذكرين حالات القيء التي أصابتك شديدة أثناء أدائك امتحان التوجيهية؟

– نعم، أتذكَّرها ولا أنساها.

– أليس من المحتمل أنك كنت تتوحَّمين أيام الامتحان، خصوصًا وأن القيء من علامات الحمل الأكيدة لدى المرأة.

– ولكن بطني لم يكن متضخمًا وقتذاك.

– هذا صحيحٌ ... القيء لا يأتي مع التضخم، إذ يحدث والجنين في طور التكوين، ثم يأتي طور النمو فيتضخم الجنين، وبالتالي يتضخم الرحم ثم يتضخم البطن شيئًا فشيئًا حتى الشهر التاسع من الحمل ... وهكذا، لو مكثت في بيتك شهرًا آخر لازداد بطنك انتفاخًا. الطفل الذي في رحمك ينمو يا ست هانم.

– لا ... لا ... ما هذا الرأي الذي وصلت إليه، لقد بالغت في خيالاتك، فأنا عذراء قطعًا، وأنا أدرى بنفسي.

– من رأيي أن تعرضي نفسك على طبيب أخِصَّائي في أمراض النساء.

– سأفعل.

– وبسرعة. فكلما أسرعت بالعلاج، كان أفضل وأسهل.

– غدًا، إن شاء الله!

– ألو، هل ذهبت إلى طبيب؟

– نعم، ذهبت.

– وماذا قال لك؟

– إنه اشتباه حبَلٍ، أي أنه حملٌ خمسين في المائة.

– هذا كلامٌ عائمٌ لا يتفق مع أي منطقٍ أو معقول ... لا بد أن يبتَّ في الأمر، فيقول إنه حملٌ، أو إنه ليس حملًا، ويبين ما هو ... ليس هذا كلام طبيب، فكل شخصٍ جاهلٍ بأمور الطب يمكنه أن يقول ذلك. أما الطبيب فيذكر الحقائق الأكيدة ويقطع برأي كي يطمئن المريض، ثم يصف له العلاج الذي يجب أن يتبعه المريض. حلَّاق الصحة في الأرياف لا يمكن أن يقول مثل هذا الكلام. اعرضي نفسك على طبيب آخر.

– سأفعل غدًا.

– ألو! هل ذهبت إلى طبيبٍ آخر؟

– نعم، ذهبت إلى طبيبةٍ أخِصَّائية في أمراض النساء.

– وماذا قالت لك؟

– قالت إن عندي فتاقًا، ولا بد من إجراء عملية بسرعة، قبل أن تزداد الحالة سوءًا.

– هل تتذكرين أنك حملت شيئًا ثقيلًا؟

– لم يحدث.

– إذن، فمن أين يأتيك الفتاق؟

– الطبيبة قالت ذلك، وأفهمت والدتي بأنه يلزمني عملية فتاق. وستذهب إليها أمي غدًا للاتفاق على الأتعاب المطلوبة.

– لا بد أن الطبيبة عرفت أنك حبلى، ولم ترض إزعاج والدتك، وبدلًا من عملية فتاق، ستجري عملية إجهاض ... وبعد نجاح العملية والشفاء ستطلبك وحدك، وتصارحك بحقيقة الأمر، ولا من شاف، ولا من سمع ... هذا هو المعقول.

– لو كان الأمر كما تقول، لصارحتني به الطبيبة في السر بيني وبينها، دون أن تعلم أمي.

– المهم ... هل يعلم أبوك بالموضوع؟

– كلَّا ... هو لا يعلم شيئًا عن مشكلتي هذه.

– ولماذا أخفيت هذه الظاهرة عن أبيك، ما دمت تأكدت من أنك مصابةٌ بفتق وليس حملًا، كي يدبِّر لك نفقات العلاج؟

– لم أشأ أن أخبره بموضوعي كي لا أُعرضه للقلق والانزعاج. يكفيه ما هو فيه من أمراضٍ وأوجاع لا تفارقه.

– حسنًا فعلت، وهذه حكمةٌ منك، عسى أن يقف الرب معك في هذه العملية، وتنجح.

– هل ذهبت والدتك إلى الطبيبة، للاتفاق على الأتعاب، وعلى موعد إجراء العملية؟ خصوصًا وأن تاريخ افتتاح الجامعة يقترب، لأننا الآن في العاشر من سبتمبر.

– لم تذهب أمي معي إلى الطبيبة، ولكني ذهبت وحدي إلى طبيبة أخرى، أخِصَّائية أيضًا في أمراض النساء، فقالت: إنني حامل في الشهر الخامس.

– يا لنهارك الأسود!

– فعلًا ... هو أسود ... والطبيبة رفضت إجهاضي لتأخري خمسة شهور ... قالت إن الطفل ثبت، ورأسه تكون.

– وماذا عساك فاعلة في هذه الفضيحة الشنيعة التي ستتعرضين لها، وستقضي عليك وعلى مستقبلك تمامًا.

– اتصلت تليفونيًّا بالطبيبة الثانية، ورحت أبكي لها وأستنجد بها أن تنقذني من عاري هذا. وبعد عذابٍ طويل، وافقت أن تقتل الطفل نظير ألف جنيه، لخطورة العملية على حياتي، وعلى مركزها كطبيبة مسئولة، والقانون يُحرِّم الإجهاض.

– ومن أين لك ألف جنيه؟

– هذه هي المشكلة. ولكن أمي أبدت استعدادها لأن تبيع بعض حليِّها الذهبية لإجراء عملية الفتاق.

– إذن، فأمك تعتقد أنها عملية فتاق.

– وهل كنت تريدني أن أقول لها الحقيقة حتى تسقط فاقدة الوعي وتموت من هول الصدمة والفضيحة؟

– سؤالٌ واحدٌ، أرجو أن تردي عليه: من ذلك الرجل المجرم الأثيم الذي سلبك عرضك؟

– والله، لا أعرفه ... لم يمسني رجل، ولكني حملت دون اتصالي برجل.

– هذا غير معقول. فالحبَل لا يكون إلا نتيجة ماس كهربائي بين رجل وامرأة.

– أنا متأكدةٌ من نفسي.

– ألا يمكن أن تكوني خرجت مع صديقٍ شابٍّ في نزهةٍ بريئة، فغافلك ووضع لك قرصًا منومًا في الشراب، ولما غبت عن وعيك سطا على عفافك دون أن تحسِّي. وبعد الانتهاء من العملية ألبسك ثيابك بعد أن محا آثار فعلته؟

– كلَّا، لم أخرج في نزهةٍ مع أي صديق، ولم أجلس في خلوةٍ مع أي رجلٍ أو شاب ... بل جاء هذا الحمل وحده.

– والله إيه! ... إذن فسيادتك عذراء القرن العشرين. حبلت بلا رجل ... يا لها من معجزة يجب نشرها على الملأ ... لعنك الله دون سائر النساء يا فاجرة، ويا مجرمة ... لن أعرفك بعد اليوم، ولا أريد أن تتصلي بي إطلاقًا ... ويكفيني إدراكًا أنك ربما زنيت مع البواب الذي قتله المصعد جزاء ما فعل.

الحب الرائع

تخطَّى الستين من عمره، ومع ذلك ما زال قلبه يخفق بالحب ... ورغم كل المحاولات التي بذلها؛ ليقنع نفسه بأن الحب للشباب وحدهم وليس لمن كانوا في مثل سنِّه، إلا أن رغبته في الحب ظلت قوية شديدة. كان في حيرةٍ من أمره، فهو لم يتزوج طول حياته، ولكن سبق له أن أحب بدل المرَّة عشرات المرَّات، وذاق حلاوة الحب بمختلف ألوانه ومذاقاته. وكان يُمني نفسه باليوم الذي يجيء فيمتلئ قلبه بحب الله وحده، ويتفرَّغ للعبادة والصلاة اللتين حرم نفسه منهما طول فترة شبابه بحجة انهماكه في الدرس والتحصيل، والجري وراء لقمة العيش التي تتطلَّب منه كل دقيقة من وقته الثمين.

كان الأستاذ عاطف يحسُّ بعاطفة الحب قويةً متأججةً في كل قطرة من دمه. فإذا أبصر فتاةً جميلةً شُغل بها إلى حين، وتذكَّر شبابه الذي ولَّى، وتحسَّر واعترته نوبة من الحزن الشديد، لأن الفتاة الجميلة التي رآها لم تُعره أي التفات بمجرد أن وقع بصرها على تلك الخطوط البيضاء التي رسمها الزمن في رأسه وأصابت سوالفه وحاجبيه بصورةٍ ملفتة.

مضت على الأستاذ عاطف عدة سنوات عِجاف، ذاق فيها طعم القحط الشديد. فلا حب ولا إعجاب، ولا هوى ولا غرام، ولا مقابلات ولا همسات، ولا أي لونٍ من ألوان الانسجام والترويح عن النفس والتنفيس عن الجوى.

اشتعل قلب عاطف المتصابي، وتأججت فيه النيران المستعرة، وتحلَّى بالصبر والتجلُّد، وترك مقاليد الأمور لمن بيده تصريف الأمور ... وأفرغ طاقته المكبوتة في التقرُّب إلى الله، وذكر اسمه وأقواله وآياته العاصمة.

كرَّس الأستاذ عاطف جزءًا من وقته وأمواله لعمل الخير لمن يستحقُّ الخير، وعوَّد لسانه النطق برقيق الألفاظ ومعسول الكلام، حتى رآه الناس شخصًا قد تحوَّل تمامًا عمَّا

ألفوه منه ... تحول إلى ملاك في عيون البعض، وإلى نصف ملاك في عيون الكثيرين، إذ صفت روحه وارتقت، واكتست بحلل من الشفافية الصارخة، التي قلما تجدها في كثير من الناس، ولا حتى لدى رجال الدين الملتزمين بمحراب الدين وعلومه وفقهه وتعاليمه.

بدأ الأستاذ عاطف يشعر بشيءٍ من الاستقرار العاطفي مع هدوء البال والفكر، ورضي بما قسم الله له من جمال روحي صار حديث المقربين وغير المقربين، وأمعن في زُهده وتمسكه بأثواب الفضيلة والطهارة بعد أن استمرأ طعمهما وحلاوة مذاقهما، وشكر ربه على ما آلت إليه حاله، واكتفى بهذه النتيجة الباهرة التي وهبه الله إيَّاها.

بيد أنه ذات يوم الْتقى بفتاة طلبت أمها منه أن يساعدها في دراسة اللغة الإنجليزية ... فإذا بكل شيءٍ يتغيَّر مع الأستاذ عاطف، وعادت العواطف تتأجج بين جوانحه من جديدٍ بعد أن خمدت، أو بعد أن ظنها خمدت إلى الأبد.

كانت عبير هذه في الثانية عشرة من عمرها. تلميذة بإحدى مدارس اللغات بالمرحلة الإعدادية. وشاءت الظروف أن يسوقها المولى إليه. فما كاد أن يراها حتى امتلأ قلبه بحبها منذ النظرة الأولى، ولمس فيها كل معاني الطهارة التي يمتلئ بها قلبه، ووجد فيها البراءة والسذاجة والدعة والجمال الصادق بلا رتوش ولا أصباغ ولا ألوان ... كما وجد فيها التلقائية ... فبدأ يحبها كما لو كانت ابنته ... وطلب من الله العلي القدير أن يجعلها ابنة له ... وندم أشد الندم على أنه لم يتزوج ليرزقه الله بفتاةٍ من صُلبه، تكون رقيقة حلوة، في نعومة الصغيرة عبير.

كان الدرس مرة في كل أسبوعٍ يلتقي فيه الأستاذ عاطف بعبير في كل يوم سبت، فكان ذلك اليوم بالنسبة له أعظم أيام الأسبوع وأحلاها وأكثرها بركة، إذ يتمتع فيه بمشاهدة وجه معبودته الصغيرة التي في نقاء الفل والياسمين ... تُسعده بأن يراها تلقاه بابتسامةٍ حلوة، فيخيل إليه أن الشمس أشرقت في وجهه، والقمر ابتسم وأضاء له بكامل محيَّاه ... فكان يجلس معها بالساعات، كأن الدرس ليس موقوتًا بميقات، ولا محددًا بميعاد ... وكانت عبير بدورها ترتاح إلى الجلوس الطويل مع الأستاذ عاطف، ويحلو لها أن تُعدَّ له بيدها قدح القهوة التي عرَفت أنها مزاجه الخاص، وتحس بالسعادة البالغة عندما تراه يرتشف القهوة، ويقول: الله! بارك الله فيمن أعدَّ هذه القهوة اللذيذة.

– هل أعجبتك القهوة يا أستاذ؟

– جدًّا، جدًّا يا عبيرتي.

– بالهناء والشفاء ... هل أعد لك قدحًا آخر؟

– ليتك تفعلين يا عبير، ولكني لا أرغب في أن أتعبك.

– لا تعب ولا أي شيء ... كما أن تعبك راحة.

– حقًّا، ما أروعك من فتاة ... ليتك ابنتي!

– ولم تقول هذا؟ اعتبرني ابنتك.

– وهل تقبلين أن تعطيني هذا الشرف؟

– بل الشرف لي، أن أكون ابنتك يا أستاذ عاطف.

– أخاف عليك من أبوَّتي لك.

– ولم هذا يا أستاذي؟ أبي يحبني كل الحب، ولا أجد ما يُخيفني في حبه.

– لأن حبِّي إياك أقوى من حب والدك.

– إنك تبالغ يا أستاذ ... هل هذا معقول؟

– من الصعب عليك أن تتخيلي مقدار الحب الذي أُكنُّه لك.

– أرى حبك إياي يتجلى في عينيك.

– وهل الحب ظاهر في عيني إلى هذا الحد؟

– نعم، ويكاد يقفز من عينيك إلى عيني ويملؤهما.

– ألم يصل إلى قلبك حتى الآن؟

– لست أدري، ما إذا كان قد وصل أو لم يصل بعد ... فأنا لست خبيرة في حب القلوب، لأنني ما زلت صغيرةً، ولا أعرف سوى حب الله، وحب والدي.

– ولكنك تقرئين معي ما تزخر به مسرحيات شكسبير من حبٍّ جارفٍ، يقع أحيانًا من أول نظرةٍ ... فما هو شعورك وأنت تقرئين سطور شكسبير من الحب بين العاشقين والمحبين؟

– قصص شكسبير مقررة علينا، ولأول مرة أقرأ عن الحب مكتوبًا في الكتب، ومقررًا عليَّ أن أدرسه وأستوعبه وأفهمه وأُلِمَّ به، كأنني سأصير خبيرة بهذا الشيء الغريب الذي اسمه «الحب».

– أوتعتبرين الحب شيئًا غريبًا؟

– كنت أحسبه كذلك، إلى أن وجدت نفسي أحبك من أول نظرةٍ، فظننت نفسي «ميراندا» بطلة مسرحية «العاصفة»، لشكسبير.

– ميراندا في هذه المسرحية معذورة، إذ لم تكن قد رأت رجالًا في حياتها باستثناء أبيها. ولذا، فإنها ما إن أبصرت «فرديناندو»، حتى وقعت في غرامه ... أمَّا في حالتك يا عبير، فلا يعقل أن أكون أنا أول رجلٍ يقع عليه بصرك فتقعين في غرامه!

– أقابل رجالًا كثيرين، كأعمامي وأخوالي، وأصدقاء أبي. وفي مدرستنا مدرسون، وكان يعطيني دروسًا قبلك كثير من المدرسين، ومع ذلك، فلا أعتقد أنني شعرت نحو أي واحدٍ منهم، بما شعرت به نحوك، خصوصًا …

– خصوصًا ماذا؟

– خصوصًا بعد أن لمست فيك حبًّا أبويًّا خارقًا، جذبني إليك، وجعلني أعدُّ الأيام متلهفةً إلى لقائك كل يوم سبت … أبي لم يعطني من الحب ما تعطينيه أنت بكلامك الرقيق المعسول، وبنظراتك العامرة بالحنان والعطف، والحب الصادق القوي، الذي لم يسبق أن عهدته من أي شخصٍ قبلك.

– إذا كانت الحال على ما تصفين، فبوسعي أن أُناديك، فيما بيننا، منذ الآن، باسم «ميراندا».

– كذلك أنا، سأناديك في قلبي ونومي، باسم «فرديناندو»، ولن أسمح لأحد، كائنًا من يكن، بأن يُغضبك أو يتطاول عليك بلسانه، أو يُسيء إليك بأي لفظٍ جارحٍ، لأنك تحبني حبًّا أبويًّا، وستجدني معك دائمًا، قلبًا وروحًا.

– حقًّا يا ابنتي العزيزة عبير، ما أروعك من فتاةٍ جديرةٍ بكل عطفٍ وحبٍّ وحنانٍ … ثقي بأنني، منذ هذه اللحظة، سأتَّخذك ابنة لي … ومن حقِّك أن تطلبي ما تريدين، فألبي طلبك على الفور … اسألي تعطَي، مُري أنفِّذ.

– ليس بيني وبينك أوامر ولا طلبات … ما بيننا هو المعروف، واسم الله … أنا ابنتك، وأنت أبي … يا أحلى أبٍ عرفته بعد أبي الذي مات مُنذ عامين.

أثلَج هذا الحديث صدر عاطف، وأفرح قلبه، وجعله يُشفَى من هواجسه وأفكاره، وأسعده أن يجود الله عليه بعد سنوات حياته الطويلة، بالفتاة المُتديِّنة «عبير»، كأغلى هديةٍ يمكن أن يجود بها الخالق الكريم على إنسانٍ محرومٍ من الذريَّة، بينما قلبه مملوءٌ بكل مشاعر الأبوة الصارخة.

وهكذا، أخذ طيف عبير يُطارد الأستاذ عاطفًا، ليل نهار، ويؤرِّقه في نومه، ويُضاعف من شرود ذهنه، وانشغاله في ابنته الغائبة … وارتسمت صورتها في مُخِّه وتغلغلت إلى الأعماق، ونُقِشَ اسمها محفورًا في أعماق قلبه.

فحتى اسمها زكي جميل … يُذكِّر المرء بالنسيم العليل … حلو كالماء العذب السلسبيل … عبق الرائحة ما له مثيل … وسنُّها طاهرٌ نبيل، ينضح بالذكاء والبراءة والسماحة، والبعد

عن الخبث والشر والأذى، ولسانها يقطر عسلًا كأنه الحلاوة بعينها، وديدنها هو الصدق والأمانة والوفاء ... وتفكيرها الصراحة المطلقة المحضة ... لا تعرف اللفَّ ولا الدوران، ولا المكر ولا ما يوسوس به الشيطان.

التقت شفافية عبير بشفافية أبيها الروحي الأستاذ عاطف، ونبل أخلاقها بنبل أخلاقه، وطهارتها بطهارته، وأمانتها بأمانته، ومشاعرها بمشاعره ... ولأول مرة في حياة عاطف راح يردِّد في نفسه، قائلًا: «ليتني كنت في مثل عمرها وسنِّها وعظمتها وقوة شخصيتها. ليتني أموت قبل أن يموت حبُّها الأبوي في قلبي.»

وهكذا أنعم الله، جلَّت قدرته، على عاطف الذي لم يتزوج طول حياته، بابنة ملكت عليه شغاف قلبه ... وعوَّض عبيرَ عن موت أبيها، بأبٍ يفيض عطفًا وحنانًا ومحبةً. ولله في خلقه شئون!

الملاك الشيطان

عرفها عندما كانت بالمرحلة الإعدادية. لم يُقابلها وجهًا لوجهٍ ولكن لسانه خاطب لسانها، وعقله تعامل مع عقلها ... وكانت «ناهد» هذه تُفضِّل أن يناديها أهلها وأصدقاؤها ومعارفها، باسم الدلع «ناني» الذي اشتهرت به بين زميلاتها في المدرسة، وتؤثره كثيرًا على اسمها الأصلي.

عرف مراد المهندس الشاب الحديث التخرُّج، عرف «ناهد» عن طريق التليفون، وعلم أنها من سكَّان الزمالك، وأنها عضوٌ في نادي الجزيرة حيث تلتقي بصديقاتها المشتركات في ذلك النادي، ولمس في أحاديثه الهاتفيَّة معها، مدى ما تتحلى بها من حلاوة روح وسماحة نفسٍ وطهارة قلب.

أولعت ناني باللغة الإنجليزية، واهتمت بتعلُّمها اهتمامًا شديدًا، لذا كانت تقضي معظم وقت تحدُّثها مع مراد في تعلُّم الكثير من المفردات والمصطلحات الإنجليزية التي كان يُلِمُّ بها مراد ... كانت رغبتها في إتقان التحدُّث بالإنجليزية قويةً صادقةً، وأفادها مراد قدر استطاعته إذ كان بدوره من عُشَّاق اللغة الإنجليزية.

طلب مراد من ناني موعدًا يلتقي بها فيه، فأبت بشدة، واحتجَّت قائلة: أنا ما زلت صغيرةً على هذه اللقاءات، ولا يمكن أن أُقابل أي رجلٍ في أي مكان.

– لقد صرنا أصدقاء، ومن واجب الأصدقاء أن يلتقوا، ويعرف كل منهم الآخر.

– هذا صحيحٌ ومنطقيٌّ، غير أنني لا أزال صغيرةً على مثل هذه الأمور، ومن ينطق بالألف، لا بد أن ينطق بالباء، وعلى أية حالٍ، عندي حلٌّ.

– وما هو؟

– أُرسل لك صورتي، كي تستطيع أن تتصورني أثناء حديثك معي بالتليفون.

– لا بأس، وفكرةٌ رائعة. ولن تكتمل روعتها إلا إذا أعطيتني رقم تليفونك، حتى لا تكون العصمة في يدك وحدها.

– آسفة جدًّا. فلا يمكن أن تأخذ رقم تليفوني لأنني لا أعيش وحدي، بل معي أبي وأمي، ومعنا أيضًا دادة «سعاد».

– إذن، فسأنتظر وصول صورتك بفارغ الصبر، وعلى رأي المثل: «من لا يستطيع الحصول على اللَّحم، اكتفى بالمرق.»

– إن شاء الله، تصلك الصورة قريبًا ... باي!

بعد أيام قلائل، تسلَّم مراد مظروفًا بسيطًا جدًّا، يحمل اسمه بالكامل، وعنوان سكنه كاملًا أيضًا. وما إن فضَّه حتى عثر على صورةٍ ملونةٍ لفتاةٍ مطموسة معالم الوجه، غير واضحة التقاطيع، ومع ذلك تشير إلى فتاةٍ ممشوقة القوام. فتضايق كثيرًا، إذ كان يتوقَّع صورةً واضحة المعالم تُبيِّن شكل صاحبتها، وخصوصًا وجهها.

– هل وصلتك صورتي؟

– وهل هذه صورتك بحقٍّ، أم صورة خيال غامض المعالم والتقاطيع؟

– ألم أعجبك؟ أحزنتني يا مراد، لأن شكلي لم يعجبك.

– لم أستطع أن أستبين شكل عينيك، ولا خدَّيك أو شفتيك وفمك وعنقك ... إنها تشبه صور «خيال الظل».

– إلى هذا الحد؟

– وأكثر من هذا الحد يا ناني ... أريد صورة أخرى، أحتفظ بها في جيبي، وأنظر إليها بين كل فينةٍ وفينة، وأُريها لأصدقائي، وأتباهى أمامهم بجمالك وجاذبيتك ورقتك.

– لا أعتقد أن بوسعي أن أُرسل إليك صورة أخرى ... هذا رابع المستحيلات.

– يبدو لي أنك تخافينني، رغم أنني لا أعرف عنوانك ولا رقم تليفونك ... بينما أنت تعرفين كل شيءٍ عنِّي.

– أما معرفتي اسمك وعنوانك، فمن دفتر التليفون. كما أنني زُرت المكان الذي يقع فيه بيتك وتحدثت مع عامل الجراج، فأخبرني بعاداتك، وكل حركةٍ من تحرُّكاتك، متى تخرج في الصباح، ومتى تعود ظهرًا، ومن هم أصدقاؤك وصديقاتك، كما أشار لي إلى سيارتيك الحمراء والصفراء. وقال إنك تقيم في الدور الرابع بالشقة رقم ٣٦ . وجال بفكري أن

أصعد إلى شقتك وألاحظك وأنت تخرج، إذ أخبرني بأنك موجودٌ بالمنزل، ولكني عدلت عن هذه الفكرة.

– ولِم لَم تفعلي؟

– لن تراني يا مراد ... وإنما ستسمع صوتي فحسب ... موافق أم لا؟

– طبعًا، غير موافق.

– إذن، باي.

أغلقت ناني التليفون في وجه مراد، فضايقه هذا التصرف الذي صدر من هذه الفتاة الصغيرة التي كان يتحدث إليها كما يتحدث إلى طفلةٍ في غضاضة الإهاب لا تعرف العنف ولا قلة الذوق، وكان يبني على صداقتها قصورًا في الهواء. فتألَّم كثيرًا وهو يستعيد أحاديثها معه، وخصوصًا عن ذلك الجار، الذي تظاهرت بأنها متيَّمةٌ بحبِّه، ولم تخرج معه إلا مرةً واحدة سارا فيها على كورنيش النيل أمام منزل مراد.

من حديث ناني لمراد، ما بلبل أفكاره وجعله يندم على عدم مجاراتها، أنها أخبرته بأنها لاحظت ذات يومٍ غياب سيارته الحمراء، فأدركت أنه بالخارج، فظلت تتلكأ مع جارها سائرَين جيئة وذَهابًا أمام بيت مراد، ولم يدرك ذلك الجار أنها معه بجسدها فقط، أما عقلها وعيناها فكانت ترقب اللحظة التي يعود فيها مراد إلى داره، وتُمني نفسها بأن تراه، وفعلًا رأته. فلما سمع مراد ذلك منها، تأكَّد أنها كانت تؤثره بحبها واهتمامها، وإلا لما جازفت بالخروج مع جارها التلميذ كي تحقق غرضًا آخر، أكبر وأعمق.

ظل مراد أكثر من أربع سنين ينتظر أن يحمل إليه التليفون صوت ناني مرةً أخرى، ولكن دون جدوى، فأخذ يسأل نفسه عمَّا عسى أن يكون قد حدث لها. وتذكر أنها أخبرته ذات مرةٍ، أن أباها يريدها أن تتزوج ابن عمها، الذي لا تشعر هي بأي حبٍّ أو ميلٍ إليه. فراح يحاول إقناع نفسه بأنها لا بد وأن تزوجت ابن عمها الذي يعمل بدولة قطر. الأمر الذي أبعدها عن القاهرة كلها والذهاب إلى الدوحة. ولهذا السبب انقطع عنه تمامًا صوت ناني.

حاول مراد أن ينسى هذه الناني كل النسيان، وفعلًا نجح في نسيانها، وكأنها لم تكن في يوم ما، صوتًا يتصل به ويتحدث إليه بالتليفون.

بينما مراد جالسٌ في بيته، ذات يوم يُطالع صحف الصباح، إذ بجرس التليفون يرنُّ، فأمسك السماعة، وقال: ألو ... من المتحدث؟

– أنا ناني.

– ناني من؟

– ناني من؟ هل نسيتني يا مراد؟ حقًّا، ما أتعسني وأنا أراك تنكرني كأنك لم تسمع صوتي قبل اليوم، والذي طالما قلت لي أنه متميزٌ عن بقية الأصوات، ولا يتكرر.

– أهلًا، أهلًا يا ناني. صوتك اليوم مفاجأةٌ لي لم أكن أنتظرها بعد غياب أربع سنوات، بل خمس سنوات.

– ماذا حدث لك يا مراد في هذه السنوات الخمس؟ هل تزوجت؟

– كلَّا، لم أتزوج. ولكني خطبت ولم يحدث نصيب، ففسخت الخطوبة. وأنت، هل تزوجت؟

– لا، لم أتزوج، ولا أظنني سأتزوج، لا قريبًا، ولا بعيدًا. وهذا هو ما أنويه أنا، وعقدت العزم عليه. لن أتزوج طول حياتي. ولن أرتبط بأي رجلٍ، إلى الأبد.

– ينمُّ صوتك على أنك حاقدةٌ على الرجال جميعًا … هل وقعت في تجارب مع الرجال؟

– لست ناني التي عرفتها منذ خمس سنوات. أنا كل ليلةٍ مع رجل، أنا وصديقتي منى. وهكذا نقضي معًا سهرات حمراء.

– ما أبشع ما تقولين يا ناني. كل ليلة مع رجل! وماذا حوَّلك من ملاك إلى شيطان؟

– لدي أسبابٌ قويةٌ أحدثت عندي هذا الانقلاب. فقد طلَّق أبي أمي، وتزوَّج غيرها، وهكذا تركني إرضاء لزوجته الجديدة. وبعد ذلك بفترةٍ قصيرةٍ تزوجت أمي رجلًا غير أبي، وتركتني بدورها. وهكذا وجدت نفسي أنا ودادة سعاد ننتقل من فندقٍ إلى فندق، وعرفنا الشقق المفروشة وما يدور فيها من فسق يشيب لذكره الولدان.

– ولماذا لما تلجئي إليَّ، وتطلعيني على مأساتك؟

– لم أرغب في أن تتسخ علاقتي بك … أردت أن تظل علاقتي بك نظيفةً، بعد أن صار كل شيءٍ في حياتي قذرًا. وربما يهمك أن تعرف نوع الرجال الذين أسمح لهم بمضاجعتي. كلهم من السود: من أهالي اليمن والسنغال والسودان ومن على شاكلتهم. لا أسمح لأي مصري بأن يلمس جسمي أو حتى يقترب منِّي.

– وما الهدف من ذلك؟

– إنهم يحترمونني، ويركعون عند قدمي، ويملئون وِفاضي.

– مفهوم … مفهوم.

– كما أنهم لا يتحدثون العربية، وكلامي كله معهم باللغة الإنجليزية. وبذا أواصل هوايتي التي بدأتها معك، وأنا طفلةٌ بالمرحلة الإعدادية. أما الآن فأنا أستاذة في أكثر من ميدان، في اللغات، وفي الرذيلة، وفي التنكيل بالرجال واللعب بهم كأنهم عرائس مربوطة بخيوط نهاياتها في أصابعي أنا وحدي، وكيف أحصل منهم على الدولارات بالمئات وبالألوف، يدفعونها عن طيب خاطرٍ، علاوة على الهدايا من المجوهرات الثمينة.

– غير أن حياتك هذه، يا ناني، محفوفةٌ بالمخاطر الشديدة. فلا أمان للسود لأنهم شديدو العنف، مجانين من ناحية الجنس. ثم إنك لا بد أن تصابي بأكثر من مرضٍ من الأمراض الخبيثة التي لا يمكن الشفاء منها بسهولةٍ، كالزُّهْري والسَّيَلان والقرحات الرِّخوة وغيرها، مما تسبب تأكلًا في الجسم، وتترك آثارًا غائرةً، وقد لا تُشفَى أبدًا.

– جمالي يحوِّل هؤلاء الجبابرة إلى نعاجٍ وخِراف فأصبح أنا الآمرة الناهية ... أنا البيضاء وهم السود ... أنا المتميزة الوجه، وهم حالكو البشرة، فنكون كما يقول الريفيون: كالبالوظة مع المفتقة!

– وماذا عن عذريتك؟

– عذريتي ذهبت في خبر كان. إنها وهم لا وجود له. إنها كلمة ينطق بها الفم، ويبتلعها الهواء ... فُتِحَ الدردنيل من سنوات، وتمر السفن جيئة وذَهابًا في كل وقت وكل حين، ليلًا ونهارًا.

– عذريتك هي شرفك ورأس مالك.

– شرفي ضاع يوم أن ضاع أبي وأمي، وهنت عليهما ليتمتعا باللَّذات الجنسية، كأنهما لم يتذوقاها قبل ذلك لسنوات عدة. تركاني أواجه الذئاب الآدمية وحدي، وهما يعلمان أنني لا بد منحدرة إلى هذا المصير. لقد ضاع رأس مالي بضياع والديَّ.

– يا لهول ما أسمع! ناني تتحول إلى مومس؟

– لا تقل «مومس» ... فأنت بهذا تسبُّني ... المومس امرأة نكَّل بها الدهر، واعتدى عليها الزمان وحكم عليها بالذل والهوان، دون رحمةٍ ولا شفقة. كما يشرفني أن تصفني بأنني مومس، قل هذه الكلمة كما يحلو لك، كررها ما طاب لك أن تكرِّرها ... فأنا فعلًا أقذر من المومس.

– هل أستطيع أن أراك يا ناني، عساي أساعدك في محنتك هذه ومأساتك، وقد أُنقذك من هذه الوهدة القذرة التي تردَّيت فيها.

– هذا لن يحدث بأي حالٍ يا مراد. أنت تعتبرني غير شريفةٍ، بينما تعتبر نفسك الشرف بعينه … ومن ثم فإن لقاءنا مستحيل … وداعًا يا مراد … باي باي. ولكنك في هذه المرة لا تتوقع أن تسمع صوتي مرةً أخرى … وداعًا يا مراد … أنت النقطة البيضاء في ثوبي الملطَّخ بالعار.

ذات الرداء الأسود

«جينا» فتاةٌ حائرةٌ مترددةٌ ... شخصيتها غير ثابتةٍ ... لا تعرف كيف تبتُّ في أي أمرٍ كما يجب ... تشكُّ دائمًا في آرائها، وتعتقد أنها لا تستطيع أن تجزم في أي مشكلٍ أو أمر من مشاكل وأمور حياتها برأي قاطعٍ صائب.

أحبت جينا عصامًا حبًّا جارفًا استولى على كل عقلها وتفكيرها، رغم أن عصامًا هذا يكبرها بثماني سنواتٍ، وكان شابًّا وسيم الوجه حسن الصورة، قوي الجسم، مفتول العضلات.

وكان جار جينا «حازم» يحبُّ بدوره جينا حبًّا يكاد يكون عِبادة. يطاردها باستمرار من البيت إلى المعهد الذي تدرس فيه ... يلتقي بها صباحًا وهي خارجةٌ من منزلها، وينتظرها عند باب المعهد في موعد الانصراف، ويلازمها كظلِّها إلى أن تدخل بيتها.

حارت جينا بين الاثنين: بين جارها حازم وبين عصام المهندس الذي تخرَّج في كلية الهندسة بعد أن عاش في القاهرة بعيدًا عن وطنه الكويت طوال مدة دراسته الثانوية والجامعية، وكان طالبًا مجدًّا قطع سنوات الدراسة بلا تعثرٍ مما يدل على ذكائه وجده واجتهاده. وكان كلما التقى بجينا يقول لها: «أحبك يا جينا ولن أتزوج غيرك.» ... لأن جينا كانت على قدرٍ وافرٍ من الملاحة وحلاوة التقاطيع وخفة الظلِّ، والقوام المشوق المتناسق الأجزاء، فضلًا عن بشرتها البيضاء الناصعة المشربة بالوردية الجميلة، كانت، كما يقولون، «كفلقة القمر».

تلتقي جينا بعصام دون علم أسرتها، في الخفاء ما استطاعا إلى ذلك سبيلًا ... ويجدان كلاهما سعادةً كبرى في هذه اللقاءات. بينما كان بوسع حازم أن يزور جينا في شقتها، هو وأمه وأخته، بحكم الجيرة، ومدى ما بين الأسرتين من علاقةٍ وطيدةٍ بدأت منذ أن كان

أبواها على قيد الحياة، واستمرت إلى ما بعد وفاتهما، وإقامتها مع خالتها القاسية، التي لا تعاملها برفقٍ أو حنان، بسبب عدم ارتياحها لتصرفات جينا، وإمعانها في الخروج وحدها، والعودة في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل.

جاء اليوم الذي أصرَّت فيه الخالة على أن تكون جينا من نصيب حازم … وفعلًا، تم الزواج. وفجأة وجدت جينا نفسها وقد تركت دراستها بالمعهد وتعيش في مكانٍ على ساحل البحر الأحمر، حيث يعمل زوجها حازم.

لم تكن جينا سعيدة أبدًا في حياتها كزوجة. ودبَّت الخلافات الشديدة بينها وبين حازم، الذي أمعن في إهمالها في تلك المنطقة النائية عن العمران. وتُقسم جينا يمينًا معظَّمة على أنها لم تمكِّن حازمًا من أن يفضَّ بكارتها أو يضاجعها أو ينال منها أي وطرٍ طوال الأسابيع الثلاثة التي هي كل حياتها الزوجية معه، والتي انتهت بطلاقها منه. وقد أُثبت في ورقة الطلاق أنها ما زالت عذراء ولم يضاجعها إطلاقًا. عادت جينا مرة أخرى إلى خالتها التي راحت تسومها كل أنواع العذاب، لأنها اعتبرت هذا الطلاق كارثة تنال من سمعتها وسمعة جينا وسمعة العائلة كلها … ولم تجد جينا مفرًّا تهرب إليه من عذاب خالتها التي قُدَّ قلبها من صَوَّان، إلا أن تعود إلى دراستها بالمعهد، حيث تنسى همومها وضياع حبيبها عصام الذي تضاعف حبُّه في قلبها الكسير المهزوم، بعد فشلها في زواجها من حازم.

طفقت جينا تبحث عن عصام، وآلمها أن تعرف أنه سافر إلى الكويت عقب أن بلغه زواج جينا بحازم. اعتبر هذا الزواج إهانة لمشاعره، إذ كانت قد وعدته بألا تتزوج أي رجلٍ غيره. ولعله أدرك من ذلك أن لا أمان للنساء، وأن كيدهن عظيم، وأنهن شياطين خُلِقْنَ للرجال.

رغم ذلك، ما كاد خبر طلاق جينا من حازم يبلغ عصامًا، حتى أسرع بركوب الطائرة والعودة إلى القاهرة، فالتقى بجينا وكله لهفةٌ واشتياق، وبكى بين يديها من شدة الفرح متمثلًا بقول الشاعر:

هجم السرور عليَّ حتى إنه   من فرط ما قد سرني أبكاني

لم يحاول عصام أن يُعاتب جينا على ما فعلت … واعتبر أن ما حدث لها ليس سوى وعد ومكتوب لا بد أن تراه العين، وزاد سروره عندما أطلعته على ورقة الطلاق، وعرَف أنها ما زالت عذراء، وأن منافسه ذاك لم يستطع أن يمسَّها أو يُعاشرها معاشرة الأزواج. فارتاح باله وهدأ خاطره، وشكر الله الذي حفظها له بكرًا.

تمت خطوبة جينا لعصام، ولم تكن سهلةً يسيرة، إذ خالة جينا غير راضيةٍ عن زواج جينا وعصام الذي لا تثق فيه. ومن ناحية أخرى، كانت أسرة عصام لا تُطيق اسم جينا الغريب عليهم في بلدٍ عربيٍّ لا يعرف غير الأسماء العربية المألوفة، ولا ترغب في أن يتمَّ هذا الزواج بحالٍ ما. فالفارق كبير بينهما. ماذا يُجبر عصامًا على الزواج بفتاةٍ مطلَّقةٍ وسبق لها الزواج ولعبت بزوجها الأول، بما لم تلعبه أية عروسٍ، سواء في مصر أو في الكويت. وعصام مهندس في السابعة والعشرين من عمره وما زال المستقبل أمامه باهرًا، بينما جينا لم تحصل على أية شهادة جامعية. وعصام من أسرة واسعة الثَّراء، بينما جينا فتاة يتيمة لا تملك مِليمًا واحدًا، وما زالت تكفلها خالتها. كما أن جينا سبق أن خانت عصامًا وارتبطت بجارها حازم، في حين أنها كانت على علاقة وثيقة بعصام، وعلى اتفاق فيما بينهما للزواج. لاحظت جينا سوء معاملة أقارب عصام لها. كان عمه وزوجة عمه يقيمان بالقاهرة، وكانا من أصدقاء خالة جينا، وعن طريق هذه العلاقة تعرفت جينا بعصام، فنشأ بينهما الحب القوي، كما عرفنا ... حتى أم عصام، التي حضرت إلى القاهرة لزيارة ولدها، راحت تُعامل جينا معاملةً جافةً عدائيةً. كأنها لا تبارك زواج ابنها المهندس من هذه الفتاة مقطوعة الأصل والمنبت، والتي لولا خالتها، لتسكَّعت في الطرقات. فلما فاض بها الكيل، قالت لعصام: والدتك لا تطيقني يا عصام.

– ومن أوحى إليك بهذا الشعور الكاذب. هذا الكلام غير صحيحٍ بالمرة.

– بل هو صحيحٌ تمامًا، لدرجة أنني أتحاشى زيارتها، ولا تستطيع عيناي أن تلتقيا بعينيها، خشية أن أرى الكراهية في ناظريها فيمتلئ قلبي حزنًا وفزعًا ... حتى زوجة عمك، هي الأخرى.

– ما لها زوجة عمي؟

– كلامها لي كطلقاتٍ نارية. لذا أشعر بأنني لست مرغوبةً.

– ولكنني راغب فيك، وكما يقول المثل: إذا كان القمر معي، فماذا يعنيني من النجوم؟ أنا الذي سأتزوجك، فلا تبالي بالآخرين.

– إنك تشترط علي، بعد الزواج، أن أعيش معك في الكويت ... معنى هذا، أن حياتي ستغدو جحيمًا لا يُطاق، إذ سأكون تحت رحمة أسرتك وأقاربك الذين لا يحبونني، ويظهرون لي العداوة من الآن ... تُرى ما سبب هذه الكراهية!

– لم يحدثوني في هذا الأمر، ولن أسألهم بدوري لأنني أعلم أنهم سيحبونك، ولا بد أن يحبوك إكرامًا لخاطري، بمجرد أن تُصبحي زوجتي.

– هل تعتقد أن زواجي بحازم هو سبب كراهيتهم لي؟

– ربما، لو أنهم يكرهونك حقيقة. ولكنك واهمةٌ، فهم يُحبونك، بينما يخيَّل إليك العكس. وعلى أية حال، أنا شخصيًّا آلمني ذلك التصرف ألمًا شديدًا، ولذا آثرت الهروب من مصر حتى لا أُصاب بانهيارٍ عصبيٍّ من هول الصدمة.

– وما الذي أتى بك ثانيةً إلى مصر، بمجرد أن بلغك طلاقي من حازم، وعودتي إلى بيت خالتي؟

– ربما أتت بي الرغبة في الانتقام.

– الانتقام من من؟

– من الحب الذي كاد يُحطِّمني، ويحيلني إلى لا شيء.

– فهمت ... إذن، فأنت تريد الانتقام منِّي، فرصة فريدة في نوعها، على اعتبار أنني احتقرت حبك، وفضَّلت عليه حبَّ حازمٍ. إنك تريد أن تستردَّ ما سلبه منك شخصٌ آخر.

– أليست هذه هي الحقيقة المرَّة؟

– ولكنك تعلم أنني لم أحب أحدًا سواك. وأقسم لك بشرفي على أن حازما لم يمسَّني، ولم ينل منِّي غرضًا، ولم يبصر أي جزءٍ من جسمي تستره الثياب. وأنا لا أزال بِكرًا، وسوف تتأكد من صدق قولي، عندما تتزوجني.

– هناك موضوعٌ آخر أغضب أسرتي منك كل الغضب.

– وما هو؟

– هل يجوز لك أن تأتي للعزاء في عمي الذي مات منذ أسبوع، وأنت ترتدين فستانًا رمادي اللون؟

– وماذا كنت تنتظر منِّي أن ألبس؟

– فستانًا أسود. إنه عمي بمثابة أبي، وفي مقامه ومنزلته.

– وما قولك في أنه ليس عندي فستانٌ أسود على الإطلاق، ولم يسبق لي أن ارتديت اللون الأسود ... فلبست أَحْلَكَ ما كان عندي، وهو اللون الرمادي الداكن. لا تنس أنني في التاسعة عشرة من عمري ليس غير.

– أهذا شعورك نحوي، ونحو موت أقرب المقربين إلي ... أفهم من هذا، أنني يوم أموت، قد تلبسين اللون الأبيض.

– الحزن في القلب يا عصام، وليس في الملبس.

– ولكن هناك تقاليد.

– لم يكن عندي فستانٌ أسود. ولم أشأ أن أختفي في هذه المناسبة، كي لا يُقال إنني لم أُجامل والدتك ولا زوجة المرحوم عمِّك.

– أنت لا تصلحين زوجة لي. أنت فتاةٌ مستهترةٌ. لم تحترمي مشاعري يوم أن تزوجت غيري في وقت كُنَّا فيه معًا في ذروة الحب والتمسك بالوعود الصادقة، ألا يتزوج أحدنا غير الآخر. والآن، أراك لا تحترمين مشاعر أسرتي وأقاربي. أنت آخر من تصلح لأن تكون زوجتي. ومن كانت على شاكلتك، لن أتورَّع عن إلقاء دبلة الخطوبة في وجهها، والابتعاد عنها، مخافة المصير المؤلم.

وهكذا، ترك عصام جينا وانصرف. أما هي، فانهارت تمامًا، وانهمرت دموعها أنهارًا. وضاعت كل آمالها، وأصرَّ ت على ألا تواصل دراستها بالمعهد حتى يكون الفشل كاملًا في كل شيءٍ.

الصبر مفتاح الفرج

فرح الدكتور إبراهيم إذ رزقه الله مولودة حلوة التقاسيم باسمة الثغر باستمرار، فسمَّاها «فريدة» مؤملًا في أن تشبَّ فريدة في كل شيءٍ: فريدة في جمالها، فريدة في تعليمها وفي أخلاقها ومستقبل حياتها. وهكذا، امتلأت حياته، لأول مرةٍ، بالسعادة الخارقة لأنه ظل متزوجًا مدة أربع سنواتٍ كاملة، لم يُنجب خلالها أطفالًا، حتى منَّ الله عليه أخيرًا بفيفي، كما تعوَّد أن يُسمِّيها بعد أسبوعٍ من ولادتها.

ما كل ما يتمنى المرء يُدركه، إذ يبدو أن فرحة الدكتور إبراهيم كانت وقتيَّة، فإن ابنته التي توسَّم فيها أن تكون مصدرًا للسعادة الأبدية، تتحول إلى صورةٍ على نقيض ما توقَّعه الدكتور إبراهيم، ووضع أمله فيه.

بدأت مشاكله مع فيفي وهي في الشهر السادس من عمرها، إذ ضَمُرَ جسمها وامتقع لونها واشتد صراخها وعويلها، مما يدلُّ على أنها تُعاني ألمًا شديدًا، ولما عرضها على أشهر الأطباء الأخِصَّائيين، أجمعوا على أنها تعاني من فقر دمٍ شديدٍ جدًّا، وانخفاضٍ كبير في نسبة كُرَيَّات الدم البيضاء، وعلى أن علاجها يتطلَّب حرصًا واهتمامًا كبيرين، وأنه قد يستغرق عدة سنواتٍ. ومن هؤلاء الأطباء من همس في أذن أبيها بقوله: ليتك تتركها بغير علاجٍ لتموت في غضون شهرين على الأكثر، فتوفر آلاف الجنيهات التي ستنفقها على علاجها، دون جدوى.

ما كاد الأب يسمع قول هذا الطبيب المشهور حتى ذُعر لمجرد الفكرة، وأبى أن يعمل بمشورته مهما يُكلِّفه علاج فيفي من أموال. بدأت الرحلة الطويلة مع نفس الأطباء، وأرقى المستشفيات، حوالي خمسة وعشرين عامًا، أنفق فيها الدكتور إبراهيم ما لا يقل عن مائة ألف جنيه أجورًا وأثمانًا لمختلف العقاقير والدم الذي كان يُنقل إليها يوميًّا تقريبًا.

هذا علاوة على عذابه الفكري والبدني، وهو يتحمَّل عبء هذه الابنة الغالية. وكان الله قد أنعم عليه بفتاتين أُخريين، سمَّاهما: «نادية وليلى» وبولد واحد سمَّاه «أمين». رغم ما كان يتحمله الدكتور إبراهيم من أعباءٍ ماليةٍ تئن لثقلها الجبال، فإنه لم يقصِّر أبدًا في الإنفاق على أولاده الثلاثة الآخرين، فأدخلهم خير المدارس، وأنفق على تعليمهم بسخاءٍ ما بعده سخاء.

وفي يوم حالك السواد، صعِدت روح الدكتور إبراهيم إلى باريها بعد أن رقد مدةً قصيرةً بالمستشفى، تاركًا عبء تربية أولاده الأربعة إلى أمهم التي كانت تتحمَّل العذاب والألم مع زوجها بإيمان ثابت في الله جلَّت قدرته وحكمته، كأنها الطود الراسخ، قلَّما تشكو أو تتذمر، مقتدية بزوجها الراحل الكريم، وإذ كانت بدَورها طبيبة، فقد كانت أكثر الناس ألمًا لحالة فيفي، واستمرت تنفق على علاج هذه الابنة المسكينة حتى آخر لحظة من عمرها.

وأخيرًا اختار الله فيفي إلى جواره، فاحتملت الأم الصدمتين، صدمة موت زوجها، وبعدها بأقل من ستة شهور صدمة وفاة فيفي الحبيبة التي كانت أكبر أولادها.

مرضت الأم المؤمنة، ولزمت الفراش مدة طويلة إثر صدمتها الأخيرة وهي لا تزال تردد: «سبحان من لا يُحمد على مكروه سواه.» ... صدمتها المقادير القاسية، إذ خطفت منها رفيق العمر الغالي، كما خطفت الفتاة التي كانت قُرة عين أبيها وحبيبته.

قاسى الأولاد الثلاثة شتى المتاعب لمرض أمهم، وخيَّمت على البيت سحابةٌ كثيفةٌ من الكآبة والحزن والقلق. لقد تصدَّعت أهم أركان البيت، إلا أن العناية الإلهية أنقذت الأم من مرضها الشديد، واستطاعت بعد عدة شهور أن تعود إلى عملها بجدٍّ ونشاطٍ، كي تكفل لأولادها عيشةً سعيدةً. وحاولت الأسرة أن تستأنف حياتها العادية، مجترَّة آلامها في فقد أعز أفرادها.

كبِر الأولاد، وزاولوا العمل، وخفَّ العبء على الأم ... تخرَّج أمين في كلية الطب، ففرحت الأسرة لنجاحه وتوفيقه، كما حصلت نادية على ماجستير من الجامعة الأمريكية، وتفوقت ليلى في دراستها بالجامعة الأمريكية وحصلت على البكالوريوس في الاقتصاد والعلوم السياسية.

جاء اليوم الذي أصرَّ فيه الدكتور أمين على السفر إلى أيرلندة ليتخصص في الأمراض العصبية وعمليات المخ، فكان سفره زلزلة قوية للأسرة، إذ كان هو الرجل الوحيد فيها، والذي حلَّ محل أبيه بعد وفاته. ولكن الأم اضطُرت إلى الرضوخ، على مضضٍ، لرغبة ابنها،

حرصًا على مستقبله. وهكذا، سافر الدكتور أمين إلى أيرلندة، وترك أمه مع شقيقتيه: نادية وليلى.

صبرت الأم من جديدٍ، فقد غاب الولد عن ناظريها، واختفى صوته من أذنيها، وبدأت تعيش على سماع صوته في التليفون، وما تقرؤه من سطوره في الخطابات التي كان يُرسلها إليها من أيرلندة كل أسبوعين تقريبًا. وراح جسمها يترهَّل، وقواها تخور شيئًا فشيئًا، وصار مشيها وئيدًا من فرط ما فوق كتفيها من هموم وأفكار، وخوف من المستقبل الخئون.

عندئذ نصَّبت نادية نفسها رجلًا على البيت، وأخذت تُشرف على كل شيءٍ داخل البيت وخارجه. تخرج في الصباح الباكر متجهة إلى عملها بجدٍّ واهتمامٍ وجديَّة تفوق الوصف، حتى إذا ما انتهت من عملها الصباحي، ركبت سيارتها الصغيرة، واتجهت إلى عمل بعد الظهر، ولا تعود إلى البيت قبل الثامنة مساءً، لتجد أمها تنتظرها على أحرِّ من الجمر، تسألها عشرات الأسئلة لتطمئن على أحوالها، وهل تناولت إفطارها وغداءها، أم ظلت طول اليوم على الطَّوَى ببطنٍ خاوٍ.

تُعِدُّ نادية وليلى مائدة العشاء، فيلتف شمل الأسرة على مائدةٍ واحدة؛ لأن العشاء هو الوجبة الوحيدة التي يمكن لثلاثتهن أن يجتمعن فيها حول مائدةٍ واحدةٍ، تشاركهن خالتهن التي كانت تحسُّ بآلام أختها الدكتورة وداد، وبالوحدة الشديدة التي تكتنف حياتها بعد غياب الكل من حولها ... فليلى تخرج صباحًا ولا تعود إلا في السابعة مساءً لأنها تعمل في شركةٍ أجنبيةٍ، تُحتِّم عليها العمل فترتين: صباحية ومسائية ... ولما كنت هذه الشركة بعيدةً عن البيت، تُضطر ليلى إلى أن تقضي فترة الفراغ ظُهرًا في مكان العمل، حيث تتفانى في خدمة الشركة بلا أجرٍ ولا عائد.

استقرت الأوضاع على ذلك النحو فترة من الزمان، وبدا كما لو أن الزمان قد أخذ يملأ جو البيت بستائر من الهدوء والاستقرار والراحة، وبدا كما لو أن الجميع قد شرعوا يستنشقون هواءً طريًّا يختلف كل الاختلاف عن هواء السنوات الماضية القاسية.

وذات ليلةٍ، أعدَّت الابنتان وجبة العشاء كالمعتاد، وكانت الخالة موجودةً هناك؛ لتكون إلى جانب أختها وابنتاها في عملهما، وكان جهاز التليفزيون يعمل، والكل سعيدٌ. وتناولت الأم طعامها هانئةً، ثم قامت لتغسل يديها، وما كادت تنصرف من باب الحمَّام حتى دخلت حجرة نومها واستلقت على فراشها. وفي الحال سمعت الخالة صوت حشرجة يصدر من تلك الحجرة، فهرعت إلى سرير أختها، فأطلقت صرخةً مدويةً هزَّت جميع أركان الشقة.

في لمح البصر، انقلبت الأوضاع، وحدثت أمورٌ لم تكن في الحسبان ... وما هي إلا ثوانٍ حتى اكتشفت الأسرة أن الدكتورة الوالدة قد لفظت أنفاسها الأخيرة ... وهكذا اختلَّ توازن هذه الأسرة ... حتى الأم، التي كانت محطَّ آمال الجميع، تركت البيت والدنيا لتصير ابنتاها وحدهما تُجابهان الحياة بمفردهما، بينما أخوهما الوحيد في أيرلندة لا يعلم شيئًا عن هذا الخبر الجلل، ولا عن الخسارة الجسيمة التي حلَّت بأختيه ... بل كان العذاب ينتظر قلبه وفؤاده ووجدانه، وقد ضاع أمله في أن يعود لأمه وقد حصل على أعلى الشهادات الطبيَّة، كي تفخر به، ويعوِّضها عن فقد أبيه، وما عانته من آلام وعذاب منذ أن عرفت الزواج والحياة الزوجية.

كانت جنازة الدكتورة وداد مؤثرةً جدًّا، بكى كل من سار في تلك الجنازة، إذ كانت هذه الراحلة أمًّا بمعنى الكلمة، ومثالًا صادقًا للأم المكافحة المخلصة المتفانية في خدمة زوجها وبناتها وابنها ... وكانت تقيةً صالحةً تسعى إلى عمل الخير بكل ما أُوتيَت من حولٍ وطولٍ، وتتفانى في ذلك حتى نشأت ابنتاها على نفس النهج من حب الخير، بالانضمام إلى الجمعيات الخيرية، والعطف على الفقراء والمحرومين، وتعليم الصغار لمحو الأمية.

حضر الدكتور أمين من أيرلندة بعد انتهاء الجنازة بيومٍ واحد. وأخذ يتلقَّى التعازي بوجهٍ صارمٍ ثابت، وقلبٍ مؤمنٍ بالله وبقدره ... بدا رجلًا بمعنى الكلمة، وتماسكت الابنتان مع أخيهما، فحبسوا دموعهم جميعًا، وكبتوا مشاعر حزنهم ... وبعد يومين، عاد أمين إلى عمله في أيرلندة، وخلا البيت من جديد، من رجل البيت الوحيد ... ترك أمين البيت وهو يعلم أن شقيقتيه على قدر المسئولية التي ستضطلعان بها بعد موت والدتهما، وأنهما تتصفان بخلقٍ متينٍ قويٍّ، وتعرفان جيدًا كيف تدبِّران الأمور.

بعد ذلك حضر أمين جنازة الأربعين ... وكانت مفاجأةً لأختيه ولخالته، أن حضر إلى القاهرة وبصحبته فتاة أيرلندية على قدرٍ عظيمٍ من الجمال الهادئ والفتنة الجذَّابة والصوت العذب، فقدمها إلى شقيقتيه وخالته وأخواله وأعمامه وعمَّاته، على أنها زوجته المستقبلية، وأنه سيعقد قرانه عليها في الكويت حيث سوف يستقر بها كطبيبٍ بأحد مستشفياتها الكبرى، ولسوف تعمل معه خطيبته بنفس المستشفى، إذ تخصصت في التمريض كحكيمة (سستر). وقد تعرَّف بها من خلال عمله معها في أحد مستشفيات أيرلندة.

سافر أمين وخطيبته إلى الكويت، وبعد أسبوعين من استقرارهما هناك، عقد قرانه على عروسه الأجنبية، وحضرت شقيقتاه حفل الزفاف وكان بسيطًا جدًّا، ولما عادتا إلى

القاهرة أخذتا تتقبَّلان عبارات التهنئة من كل من سبق أن عزَّاهما في وفاة والدتهما. وبذا صدق الشاعر إذ قال:

هناء محا ذاك العزاء المقدما   فما عبس المحزون حتى تبسَّما

لأول مرةٍ، عرفت هذه الأسرة معنى الفرح ... رغم أنه تمَّ في بلدٍ شقيقٍ، وكانت الأختان تتمنيان أن يحدث الزفاف في بيتهما الذي لم يعرف حتى الآن سوى الأحزان المتعاقبة.

ما إن مر عامٌ آخر، حتى لاح فرحٌ جديدٌ عمَّ الأسرة والأهل والأصدقاء والمعارف، إذ أُعلنَت خطوبة ليلى للدكتور «رامز». ولأول مرةٍ عرفت ليلى طعم الابتسام والفرح. أما أختها الكبرى نادية، فباركت هذه الخطوبة وفرحت لها من أعماق قلبها، ومضت تُسهِّل لها كل أمورها بما وسعها من قوةٍ وإخلاص، حتى تمَّ الزفاف وكان على ليلى أن تغادر منزل الأسرة كي تنتقل إلى بيت زوجها بمدينة نصر، القريبة من القاهرة.

وهكذا، خلا البيت على نادية وحدها، فوجدت نفسها جليسة الوحدة القاسية، لا أنيس ولا جليس، ولا أب ولا أم، ولا أخ أو أخت ... بل كل ما هُنالك فراغٌ قاتل، كله ذكريات أليمة؛ فهذا فراش أبيها، وذاك فراش أمها، وذلك فراش أختها فريدة، وهذه حجرة أخيها أمين الخاوية، وتلك حجرة ليلى خالية.

حكم الزمان على نادية، بعد طول الكفاح، بأن تجتر الأيام، وتأسو بثقلها ... فشرعت توزِّع وقت فراغها، عقب الانتهاء من العمل، في زيارة عمَّاتها وخالاتها وصديقاتها، حتى إذا ما عادت إلى البيت، هرعت إلى الفراش مُتعبةً منهوكة القوى، تنشد النوم الذي كان يستحيل عليها في معظم الليالي ... فما أكثر الذكريات الأليمة التي تجتاح رأسها وقلبها ... وكان معظم عزائها زيارة ليلى وزوجها لها كل يوم جمعة بطوله، وزيارة خالتها الوفيَّة لها في كل عشاء تقريبًا.

مرت السنون وتعاقبت الشهور، وتخطَّت نادية، بعد كل الذي حدث في حياتها، تخطت سنَّ الشباب الجميل، وبلغت الثامنة والثلاثين من عمرها، وأقنعت نفسها بأنها ستصبح صورةً طبق الأصل من خالتها، التي تجاوزت السبعين ولم تتزوج ... على أية حال كانت مؤمنةً تضع في ذهنها قول الشاعر:

دع المقادير تجري في أعنتها   ولا تبيتن إلا خالي البال
ما بين طرفة عين وانتباهتها   يغير الله من حالٍ إلى حال

تعرف أن الزواج موضوع لا يد فيه للإنسان، فقد تعلمت من أستاذ التربية الدينية أن المرء يوم أن تحبَل به أمه، يُكتب له مَن سيتزوج؛ أي أن الزواج قسمة ونصيب.

وهكذا، في يوم لم يكن منتظرًا ولا مرسومًا جاء من طرق باب شقة نادية؛ ليقول لخالتها: «أنا المهندس عادل منتصر، جئت من بلدتي في أقصى الصعيد، لأطلب يد الآنسة نادية، بعد أن علمت بتاريخ أسرتها من بعض أقاربي في القاهرة فعسى أن يكون لي شرف القبول.»

بعد السؤال والتحرِّي والتقصِّي وافقت نادية وخالتها على الخطوبة ... فجُدِّدَت الشقة وطُلِيَت جدرانها ... وتخلصت نادية من كل الأثاث القديم؛ ليحل محله أثاثٌ جديد ... وبدأت الثُّرَيات تتلألأ في حجرات الشقة وأبهائها ورَدَهاتها، وعفا الدهر على قصص الحزن والأهوال الماضية.

وفي غضون بضعة أشهر، زُفَّت نادية إلى عادل في حفلٍ بهيجٍ حضره أمين وزوجته وليلى وزوجها وجميع الأهل وفرحوا مهللين ومكبِّرين.

كُتب لنادية الصابرة المؤمنة أن تعيش كأسعد فتاة ... عاد إليها شبابها، وانمحى من وجهها ما كان قد ظهر به من تجاعيد ... صبرت وقامت بكل ما هو مطلوب منها في الحياة، بإيمان ورضوخ لإرادة الله عز وجل ... فكافأها الله مثلما كافأ أختها وأخاها ... وهكذا، لم تندثر هذه الأسرة، بل تشعَّبت وتفرَّعت ... وغدًا نسمع عن الأحفاد والحفيدات ... والكل يعيش في سلامٍ وهناء وسعادةٍ، شاكرًا المولى الذي منع فأعطى، وعذب ثم سمح وصفح، وجرب ثم جازى، وهو على كل شيء قدير.

الحجاب أولًا

كاميليا فتاةٌ على جانبٍ لا بأس به من الجمال والثقافة إذ تخرَّجت من جامعة القاهرة بكلية الآداب قسم الفلسفة، وتمتاز بالأدب الجمِّ والتمسك بتعاليم دينها والاحتشام والعفَّة ... وكانت تعتبر الدراسة الجامعية رسالةً هامةً، ولذا لم تهتم بشيءٍ أكثر من اهتمامها بالدراسة والتحصيل فكانت دائمًا من أُولَيات فرقتها الدراسية، لم ترسب في أي امتحانٍ ولم تتخلَّف في أية مادة طوال حياتها بشتى المدارس وفي الكلية ... توَّجت رأسها بتاجٍ من الجمال، مرصَّع بالأدب والأخلاق والتدين وحب الخير والعلم.

كانت طوال سنوات دراستها جادةً صارمة، لا تجري وراء الأهواء، ولا تستسلم لتصرفات زملائها الخرقاء التي كانت تعتقد أنها تصرفاتٌ صبيانية، لا تستسلم لها غير الفتيات ناقصات العقل والدين.

وحتى بعد تخرُّجها في قسم الفلسفة، شغلت وقتها في صقل معلوماتها بالتبحر في اللغة الإنجليزية بالجامعة الأمريكية، من باب استغلال الوقت فيما هو نافع ومفيد، وكوسيلة لكسب رزقها إذا ما لجأت إليها صديقة لتساعد أطفالها الضعاف في تلك اللغة بمدارس اللغات.

طابت لكاميليا الحياة إلى حين، وهي ترى إقبال الصغار عليها للتقوية في اللغة الإنجليزية، ثم اكتشفت أنها لم تتمكن بعدُ من تلك اللغة الأجنبية وأن مستواها لا يصل إلى مستوى ما في الكتب من معلوماتٍ تتطلب التوغُّل في دقائق اللغة التي أقحمت نفسها فيها لمجرد أنها التحقت بالجامعة الأمريكية لفترة لم تزد على ثلاثة أشهر، حسبت بعدها أنها قد ألَمَّت بكل ما في الإنجليزية من صفاتٍ غريبة صعبة وقواعد شاذَّة.

وهكذا لجأتْ إليَّ كاميليا كمدرس خصوصي يساعدها على مواجهة كتب مدارس اللغات. ولكنها سرعان ما ملَّت عندما أدركت أن اللغة الإنجليزية بحرٌ بعيد الغور مترامي

الأطراف، لا يمكن قطعه أو عبوره في شهور، لأنه يحتاج إلى سنوات وسنوات من التخصص والتفرغ.

تراجعت كاميليا عن فكرة التدريس ولزمت دارها لتفرغ تمامًا لخدمة أبيها المليونير وقد بلغ من الكبر عِتِيًّا. معتقدة أنها بذلك تؤدي نحو أبيها ما يفرضه عليها دينها من حب الأبوين واحترامهما وخدمتهما والإحسان إليهما.

وفي بعض الأحيان، كانت كاميليا تتذكر أمها العظيمة التي خطفها الموت رغم ما كانت عليه من صحةٍ، وما كانت فيه من غرورٍ ورخاء، وفوق ذلك كانت بالغة الجمال والأدب والاحتشام. حزَّ في نفس كاميليا وحدتُها في البيت كأنما قد حُكِمَ عليها بأن تظل وحدها، تخدم أباها وترعى شئون البيت، وألا تستفيد من العلوم التي تعلمتها، إذ رفض أبوها الواسع الثراء أن تعمل ابنته هذه في مصالح الحكومة أو في أي قطاعٍ خاصٍّ، لأنها سترث بعد وفاته ربع تلك الثروة الطائلة.

بدأ الملل يتسرَّب إلى نفس هذه الفتاة الفاضلة، وسئمت حياتها التي أيامها كلها سواسية، تمر على وتيرةٍ واحدة، ما تصبح فيه تُمسي فيه … وما زاد الطين بَلَّةً جفاء والدها الغريب، الذي راح يعاملها معاملةً قاسيةً، ولم يعد يطيق بقاءها معه تحت سقفٍ واحد. وأخذت هذه المعاملة تزداد حدةً وقسوة، يومًا بعد يوم، حتى فكرت هذه الفتاة المسكينة أن تترك بيت أبيها، وتعيش لدى شقيقتها المتزوجة، أو عند أخيها المتزوج. ولكن خُلُقها السامي جعلها تعدل عن هذه الفكرة، لأنها اقتنعت فيما بينها وبين نفسها بعدم جدوى ترك أبيها وهو في تلك السن المتقدمة، وأن بقاءها معه هو الحل الأمثل.

زاد صياح الأب صباحًا ومساءً، لا يعجبه أي شيء، مع أن كاميليا لم تقصر في أي أمرٍ ولا في واجبٍ من واجباتها، ولم تألُ جهدًا في تلبية كل طلباته وإعداد كل ما يلزمه … ولكنه رغم هذا كان دائم التأفف والتبرم والصياح، ووصف ابنته بالإهمال وعدم الاهتمام بشئونه وشئون البيت … يبدو أن موت زوجته قد أثَّر في نفسيته، كما أن للسن حقًّا … ولكن ما ذنب هذه المسكينة وكان يجب عليه أن يرعى خاطرها وقد أصبحت وحيدةً في البيت، لوفاة أمها وزواج أخيها وأختها … وهكذا غدت كاميليا تزداد اقتناعًا، في كل يوم، بأن الحياة مع أبيها هي الموت بعينه، وكرهت أباها، أو هكذا خُيل إليها … ولكنها كانت تراجع نفسها في بعض الأحيان، وتقول لنفسها، وهي أستاذة الفلسفة: إذا كنت أنا لا أتحمَّل عصبية أبي وهو في هذه السن وأواخر الشيخوخة، فمن يتحملها؟ أي خادمٍ أو أية خادمةٍ، لا يمكن أن يطيقه وربما عمل على دسِّ السم له للتخلص من مضايقاته … وعلى هذا ترضخ صاغرةً لقضاء الله، وإساءات أبيها.

لجأت كاميليا إلى الصلاة، تطلب من المولى العلي القدير أن يخلِّصها من ذلك الجحيم، بأن يأتيها ابن الحلال فينتشلها مما هي فيه من عذاب ... فصارت لا تترك فرضًا من الصلاة إلا وتُقيمه في حينه، وتصوم رمضان، وجزءًا من رجب، ومثله من شعبان.

وإذ تمسكت كاميليا بتعاليم دينها، لبست الحجاب، واكتشفت أن الحجاب زادها جمالًا وجاذبيةً وإغراءً ... وكانت لا تظهر في بيتها إلا محجبةً ... فلما أبصرها أحد أصدقاء أبيها، تقرَّب إليها، وطلب يدها، فوافقت من فورها، إذ وجدت فيه مخلِّصها، واعتبرت أن الله تعالى قد سمع دعاءها، واستجاب لصلاتها، وأن ساعة الخلاص من الذل الذي هي فيه قد دنت واقتربت.

بيد أن الفرحة لم تتم، إذ كانت لهذا العريس طلبات رفضتها كاميليا، شكلًا وموضوعًا، ولا يمكن أن تستجيب لها بأية حالٍ من الأحوال ... وافقت على الطلبات المالية كلها، ولم تعترض عليها. غير أنها صُدمت عندما اشترط عليها أن تخلع ملابس الحجاب، وترتدي الثياب الفرنجية، ليس في البيت فقط، ولكن في الطريق أيضًا. كما اشترط عليها أن تتبرج بالأصباغ والمساحيق وتقصَّ شعرها الطويل. اصطدمت كاميليا بهذه الشروط اللاأخلاقية التي وقفت عقبةً كأْداءَ في سبيل زواجها وإنقاذها من تعسف والدها ... كيف توافق على تنفيذ هذه الشروط، وهي الفتاة المحجبة التي تقيم الصلوات الخمس، الفرض منها والسنة، وكذلك التراويح. وكيف تقبل طلاء وجهها وشفتيها وخديها وحاجبيها ورموش عينيها بالأصباغ، وتصير مثل «عروسة المولد»، وكيف ترتدي الملابس التي تظهر كل تقاطيع جسمها، وتبدي أكثر مما تُخفي، والمفتوحة من الصدر فتبدي نهديها، ومن الخلف فتبدي ظهرها ... كلا، وألف مرة كلا ... «يفتح الله يا سيدي!» أنا أتمسك بتقاليد أسرتي، وقول باحثة البادية:

إن الفتاة حديقةٌ وعفافها كالماء موقوفًا عليه بقاؤها

وقولها في قصيدة أخرى:

بيد العفاف أصون عزَّ حجابي وبعصمتي أسمو على أترابي

حاولت كاميليا أن تقنع العريس بأنه لا يليق أن يطلب هذه الأمور وهو المسلم المؤمن ... ومما زادها تمردًا على هذا الطارق أنه استطاع إقناع أبيها بفكرة التفرنج ... فراح

أبوها، بدوره، يذم لباس الحجاب ويقول إنه يؤخرنا إلى الوراء مائة عامٍ، كما أن أمها لم تعرف ملابس الحجاب، ولا أختها المتزوجة.

أصرَّت كاميليا على عدم خلع الحجاب، ووقفت ثابتةً على رأيها والتمسك بتقاليد دينها ... ورفضت بإباء وشمم أن تتزوج هذا العريس الذي يريدها غانيةً فاضحةً، أكثر منها زوجة صالحة وأمًّا فالحةً في تربية ما قد يُنعم الله عليها به من ذرية.

إعدام زهرة

تحتفظ هيام بصورة فوزي في صدرها باستمرار، لأنها كانت غالية عندها وعزيزة عليها، ولأهميتها وحلاوتها كلما نظرت إلى الصورة العزيزة، تذكرت أحلى الذكريات ... كان فوزي أملها الوحيد ومستقبلها وكل حياتها ... بدونه تتوقف أنفاسها ويكفُّ قلبها عن النبض والخفقان.

لا يزور النوم عيني هيام ليلًا إلا بعد أن تعيش لحظاتٍ طويلة يقْظَى، تسترجع فيها بعض المواقف اللطيفة التي حظيت بها وهي في صحبته ورفقته ... أما الأحاديث التليفونية فما كان أكثرها وأحلاها، وكانت لا تخلو من الضحكات البريئة السارة.

كانت اللحظة الوحيدة التي لا تريد أن تتذكرها هي التي تحوَّل فيها فوزي من مجرد كائنٍ حيٍّ رقيق، كله قوةٌ وحيوية، إلى خيالٍ متجسمٍ في صورة.

كان فوزي وهو صبي حَدَثٌ، يلعب مع هيام في الحارة. وهكذا عرَفَته، ابن جارتهم السيدة علوية صديقة والدتها الحميمة ... اعتادت هيام أن تقول لفوزي كل شيءٍ ولا تخفي عنه أمرًا، مَهْما يكن سرًّا، وتُصغي بدورها، بكل اهتمامٍ، إلى كل سر يفُوه به عن نفسه وعن أسرته ... وهكذا تعلمت هيام أن يكون لها الصديق الذي تأنس إليه، وتثق به، وتعتمد عليه ... ولم يكن ما معها من نقود ملكًا لها وحدها، بل يشاركها فيه فوزي، يشتريان به ما يرغبان فيه، ويتناولانه في سعادةٍ بالغةٍ، دون اهتمامٍ أو اعتبارٍ لما يأتي به الغد، واضعَين نُصب أعينهما المثل القائل: «اصرف ما في الجيب، يأتك ما في الغيب.»

إذا مرض فوزي زارته هيام؛ لتبقى إلى جوار فراشه طول النهار، ترعاه، وتخفِّف عنه آلامه، وتسلِّيه بأن تروي له النكات المضحكة التي سمعتها من زميلاتها بالمدرسة ... وفي كل مرةٍ تعوده فيها، كانت تحمل إليه طبقًا من الحلوى صنع والدتها، فضلًا عن وردة حمراء أو بيضاء تُقدمها إليه بيدها الطاهرة البريئة.

تقدَّم هذان الصديقان في العمر، ووصلا معًا إلى المرحلة الإعدادية ... ولأول مرة وجدت هيام نفسها تهيم بحب فوزي، فاختفت تمامًا مرحلة الصداقة البريئة، وحلَّت مكانها مرحلة الحب العاطفي ... ووجدت استجابةً من فوزي لمشاعرهما الجيَّاشة الجديدة، التي تملكت من نفسيهما قبل الأوان، واتخذا شعارَهما: «من لم يحب، لم يؤد للشباب واجبه!»

وهكذا عرفت هيام الحدائق والكازينوهات يبث كل منهما الآخر، فيها، ما يعتمل في قلبه من نار الحب الذي يتمنَّاه الكبار، ويعجزون عن تحقيقه أو الحصول عليه، أو حتى على ذَرَّةٍ من جماله وبهائه، وبراءته ورَوائه. نَعِمَ هذان الصغيران بحبٍ هادئ جميل، لا يعرف الشجار ولا الشقاء ... وكانت لغتهما أقرب إلى الهمس منها إلى أي شيءٍ آخر معروف في لغة الكلام ... وكان أقصى ما يفعلانه هو أن يسيرا معًا متشابكَي الأيدي في ولاءٍ شديدٍ قوي.

إذا جلس فوزي وهيام في كازينو، اكتفيا بشرابٍ خفيفٍ، وأمضيا الوقت كله، ينظر أحدهما إلى الآخر في تركيزٍ عميقٍ، بينما تتماسك الأيدي فوق المائدة، وهما صامتان، لا كلام ولا حتى همهمة ... وكانا يجدان في ذلك متعةً أي متعةٍ ... أما روحاهما فكانتا تحلِّقان في سمواتٍ عليا، وسط الطيور المغردة، وبين العصافير المشقشقة المزقزقة.

في هذا الجو العاطفي الجميل، استطاعت هيام أن تحصل على التوجيهية بامتيازٍ، لتلتحق بالجامعة، بينما تعثَّر فوزي ... وكان عليه أن يُعيد الفرقة الثالثة الثانوية، للمرة الثانية، إذ لم يوفَّق في اجتياز الامتحان.

دخلت هيام كلية الآداب، حيث عرفت الاختلاط بزملائها الطلبة والطالبات، ووجدت نفسها في بيئةٍ تختلف تمام الاختلاف عن البيئة التي كانت فيها من قبل ... فالحرية كاملةٌ ... لها أن تحضر المحاضرات أو لا تحضرها ... بوسعها أن تتحدث مع الزملاء من الشباب بنفس الحرية التي تتحدث بها مع الزميلات ... وهناك الكافتيريا حيث تستطيع أن تدخِّن لو أرادت ... وبهرتها حياة الجامعة، التي قوامها مطلق الحرية.

تعارضت ظروف هيام مع ظروف فوزي، فدخل الغرور قلبها وركبها ... هي جامعيةٌ ناجحةٌ، وفوزي راسب توجيهية ... إلا أنها حاولت، قدر طاقتها، أن تقتل هذا التفكير الأناني، الذي تغلغل في صدرها، وتوغَّل في قلبها، وزلزل هناء نفسها ... وأحسَّ فوزي، من ناحيته، بما اعترى هيام من تغيرٍ في المعاملة، مع قلة المقابلات التي كانت من قبل يوميًّا بلا استثناء، وانعدام لحظات الغرام والانسجام، وتغيرت طريقة كلامها، فصارت: عندي محاضرات ... أنا مشغولةٌ في الأنشطة الجامعية ... وقتي ضيقٌ لا يكاد

يكفي لاستذكاري المحاضرات والمذكرات ... لقد كبِرت على حركات زمان ... وهكذا كانت تتهرَّب منه بشتى المعاذير ... وكما يقول المثل: «مفكرة النساء كلها أعذار.»

اضطرب قلب فوزي، واهتزَّ بشدةٍ، وطار النوم من أجفان عينيه كلتيهما، وصار لا يُرَى إلا أحمر الأجفان مُسهَّدًا عصبيًّا باكيًا، ولسان حاله يقول:

أحمامة الوادي بمنعرج اللِّوى　　قد ذاب قلبي من أليم بكاك
أما أنا فبكيت من ألم النوى　　وفراق من أهوى أأنت كذاك؟

فشل فوزي، للعام الثاني، في الحصول على التوجيهية، وكذلك كانت حاله في العام الثالث ... بينما هيام في العام الثالث من دراستها الجامعية، وغدت نظرتها إلى فوزي، نظرتها إلى فتًى فاشلٍ لا يستحق الحب ولا الاحترام ... وأخذ تُسمعه عبارات الاحتقار عسى أن يثوب إلى رشده، ويُفيق إلى نفسه، ويعود إلى صوابه ... غير أن هذا الفوزي كان قد عرَف الطريق إلى الحبوب والمساحيق المخدِّرة، وتحوَّل من ذلك الغلام الوديع الرقيق، إلى شابٍّ شرسٍ يقضي معظم نهاره في عالم «المساطيل» الغائبين عن الوعي السليم.

قررت هيام أن تبتعد عن فوزي «الخايب» ... أما هو، بدوره، فصار يُلاحقها في حرم الجامعة ... غير أن منيرًا، زميل هيام في الجامعة، وصديقها منذ التحاقها بها، تصدى لفوزي، ولقَّنه درسًا لا ينساه ... فمسح به الأرض من شدة الضرب واللكم والركل ... وحسبت هيام أن هذه العلقة ستعيد فوزيًّا إلى صوابه، وتوضح له مقامه، وتبعده عن طريقها إلى الأبد ... حقيقة، ما زال قلبها عامرًا بحبه، إلا أن الأوضاع تغيَّرت الآن ... ولكلِّ مقامٍ مقال، ولكل زمانٍ دولةٌ ورجال ... هي ما زالت على حب فوزي الصغير البريء الناجح في مدرسته، وفي كسب قلبها ... غير أنه وقد تحوَّل إلى شابٍّ راسبٍ فاشلٍ، يُدمن المخدرات، فلا يمكن أن تقبله رفيقًا لشخصيتها الموفقة الناجحة.

بعد ذلك، حدث ما لم يكن في الحسبان ... كان الطقس جميلًا والنسيم يهبُّ عليلًا مُنعشًا، وكانت هيام تمشي مع زميلها منير في حرم الجامعة، بجوار ساعة الجامعة، متجهين إلى قاعة المحاضرات، فإذا بفوزي يخرج لهما من خلف حائط، ويهجم على منير بِمطواةٍ قرن غزال، فغيَّب نصلها في صدره وقلبه، فتدفقت دماؤه غزيرةً وسقط على الأرض صريعًا فاقد النطق يتخبط في دمه ... وحاول فوزي أن يهرب من مسرح الجريمة، ولكن هيام أُصيبت بنوبة من الصراخ الشديد العالي ... فجاء حرس الجامعة يجْرُون وقبضوا على فوزي ... وامتلأت الصحف بقصة الاغتيال الغادر والأسباب الكامنة وراءه

... وبعد الإجراءات القضائية الطويلة حُكم على فوزي بالإعدام شنقًا لقتله منيرًا، عمدًا مع سبق الإصرار والتربُّص.

يوم إعدام فوزي، تذكرت هيام الصورة الوحيدة التي أهداها إياها فوزي، وهو يستعد لدخول امتحان التوجيهية في المرة الأولى ... ودون أيِّ تفكيرٍ، وجدت هيام نفسها مدفوعة إلى تقبيل هذه الصورة بجنونٍ، وأقسمت على أن تحتفظ بها في صدرها حتى تكون في متناول يدها ليل نهار، كي تعيش مع الذكريات الحلوة التي امتلأت بها حياتها في أروع سني عمرها، يوم أن كان كلاهما زهرة يانعة لم تلوثها إلا قطرات الندى الطرية، فتَزيدها جمالًا وإيناعًا ... وهكذا عملت بقول الشاعر دون وعي منها:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى   مـا الـحـب إلا لـلـحـبـيـب الأول
كم منزل في الأرض يعشقه الفتى   وحـنـيـنـه أبـدًا لأول مـنـزل

أقسمت هيام ألَّا تحب أو تقع في الحب، بعد كل ما مر بحياتها من أفراح وأتراح ... وأوحت إلى نفسها بأنها متزوجةٌ من فوزي ... الفتى البريء الهادئ، الجميل الروح والخُلُق والوجدان.

مضت خمس سنوات، وهيام تعيش في هذا العالم المليء بالأوهام ... لا تفارقها صورة فوزي، وتحرص على أن تُقبِّلها كل صباحٍ، قبل ذَهابها إلى عملها، وكل ليلة قبل أن تهجع وتنام.

تشاء الصدف أن تروق هيام في عين رئيسها في العمل، الأستاذ «فوزي رحيمة»، ففاتحها في طلب يدها، فاستأذنته في أن يمهلها مدة أسبوع تفكر فيه، ثم تعطيه ردَّها بعد ذلك.

لم تذق عينا هيام طعم النوم عدة ليال، تفكر في أمر زواجها من رئيسها، وكانت قد عوَّلت على ألَّا تتزوج، وإنما تعيش على الذكريات ... ثم قالت لنفسها: ما هذا الهُراء ... كيف أرفض هذه الفرصة النادرة، والزواج سنة الله في خلقه، وعليه استمرار حياة الإنسان على الأرض ... لا بد أن أتزوج.

وهكذا بعد مرور الأسبوع، أعلنت موافقتها لرئيسها ... فتقدَّم إلى أسرتها طالبًا يدها ... فوافق أبوها وأمها، وأُقِيمَ حفل الخطوبة عظيمًا باهرًا ... وما هي إلا أشهر قلائل، حتى زُفَّت إلى عريسها بحضور أهلها وزملائها وأصدقائها وأصبحت «حرم الأستاذ فوزي رحيمة».

قبلت هيام الزواج من هذا الرجل لفكرةٍ جنونيةٍ؛ ذلك أنه كان يحمل اسم حبيبها الأول الغالي، الذي حُكم عليه بالإعدام من أجل حبِّه إياها، الذي بسببه اقترف جنايته الجنونية، ولأنه لم يقبل لنفسه المذلَّة والضيم في حضرة محبوبته … ولله في خلقه شئون.

زينب والذئب

لم يكن من الصعب عليه أن يُقبِّل زوجته قبل انصرافه إلى عمله، كما دأب أن يفعل في صباح كل يومٍ ... ولكنها أغضبته في تلك الليلة وجعلته ينام موتورًا بعد أن أثارت أعصابه بصورة لم يألفها من قبل، ومع ذلك قبَّلها عن طيب خاطرٍ، فقُبْلتها الصباحية أحبُّ إليه من كل شيءٍ، يستبشر بها خيرًا، ويتوقع بسببها يومًا سعيدًا.

بات الحاج مهدي ليلته مؤرَّقًا، يفكر في الأوضاع التي تسوء يومًا بعد يومٍ من جراء نفقات المعيشة ومطالب زوجته التي يبدو ألا نهاية لها ... وكان يعزيه أنها لا تطلب شيئًا كثيرًا لنفسها، إذ تقنع بأقل من القليل، كما تقنع بالحرمان ... غير أن كل مطالبها كانت من أجل المصاريف اليومية لزوجها، وللولدين، وللابنة، ولمصاريف المدارس والملابس والمواصلات ... يبدو أنه ليس هناك فرملة لذلك الغلاء الفاحش المطرد الارتفاع، وجشع المهنيين الذي لا يقف عند حدٍّ، بل يستغلُّون ضرورة الحاجة إليهم فيطلبون أجورًا لا يقبلها العقل، ولا تتفق مع أي منطقٍ أو معقولٍ ... وماذا تفعل السيدة فاطمة إزاء ذلك ... هل تجعل أولادها يجوعون، أو يشبُّون جهلاء، أو يتعرَّون في عز البرد ... ترضى هي، عن نفسها، بأن تعيش على الطَّوَى ولا تتناول إلا وجبةً بسيطةً واحدةً كل ثلاثة أيام ... ولكن ماذا عن الأولاد؟

لأول مرة يحسُّ الحاج مهدي أنه أخطأ بأن تزوج على كبرٍ من فتاةٍ في سن ابنته، لو تزوج في السن المناسبة ... لقد وجد في فاطمة الجمال الذي ينشده، والأخلاق الفاضلة والاحتشام اللذين يعجب بهما. وقد ازداد ارتباطًا بها، بعد أن أنجبت له أحمد وحسنًا وزينب.

يكاد دخله من عمله بالمحافظة، لا يكفيه لشهرٍ طويلٍ لا ينتهي، وخصوصًا أنه من أصحاب المزاج و «الكيف» ... لا غنى له عن السيجارة والشيشة وكوب الشاي الثقيل.

أما فاطمة فلا تُدخِّن ولا تشرب الشاي إلا نادرًا جدًّا عندما يكون الطقس شديد البرودة، فتكتفي بكوب شاي واحد في الصباح ... وقد حاول الحاج مهدي أن يحد من التدخين أو الشيشة، فلم يستطع، إذ تأصلا في دمه منذ أن كان صبيًّا في العاشرة ويكلفه أبوه بأن يضع له جمر الفحم في الشيشة ويُعدُّها له، فيُضطر إلى أن «يشد» منها نفسًا أو اثنين.

عبثًا حاول الحاج المهدي أن يجد عملًا إضافيًّا بعد الظهر أو بالليل، يستطيع عن طريقه الحصول على قرشٍ حلالٍ يسد به طلبات الأولاد والزوجة المطحونة في خدمته وخدمه أولاده، وخصوصًا زينب، قُرة عين أبيها التي سمَّاها بهذا الاسم، تيمنًا بالسيدة زينب، التي زارها في مسجدها ونذر لها إن رزقه الله مولودة أنثى أن يُسمِّيها زينب ... فاستجاب الله له وولدت زوجته ابنته في أول يوم من أيام مولد السيدة زينب، فحققت للحاج مهدي أمنيته، وكان من الواضح جدًّا أنه يولي هذه الوليدة الأخيرة كل حبه واهتمامه ... ويضايقه جدًّا أن يراها بحذاءٍ ممزقٍ أو بثوبٍ بالٍ.

لأول مرةٍ فكرت زوجته فاطمة، في أن تعمل في البيوت؛ لتساعد زوجها الذي يُعاني من ربو شديدٍ يقطع أنفاسه ويشلُّ حركته ... ولكن الحاج مهدي ثار ضد هذه الفكرة، واستنكر أن تعمل زوجته في حياته.

– وماذا في ذلك يا حاج، والعمل شرف؟

– عندما أموت، اشتغلي ... ولكن ما دمت أنا حيًّا أُرزق، فهذا محالٌ.

– وما دخل الموت في الموضوع ... دخلك لا يكفينا، وأنا ما زلت في ريعان الشباب، قوية الساعدين ولا ضير في أن أساعدَك، وأنا شريكة حياتك ... المهم الحصول على القرش الحلال بالعمل الشريف.

– لا أريد ذلك القرش الذي يجعلك تعملين ... أنا في غنًى عنه ... أنا الوحيد المكلَّف بالإنفاق على البيت ... أنا سيد هذا البيت ... ولا يمكن أن تعمل زوجتي ... تقاليدنا لا تسمح بأن تعمل الزوجة ... هذا عارٌ ما بعده عار.

– تقول هذا إن كنت سأعمل راقصةً أو في «كباريه»، أو في «بار» ... ولكني سأقوم بعملٍ شريف ... فقد عرضت عليَّ جارتي «أم سعيد» أن أعمل لدى ضابط من أقرباء الناس الذين تعمل عندهم، في أشد الحاجة إلى من تقوم بخدمة زوجته المريضة نظير مرتبٍ يُضاهي مرتبك، وربما أكثر منه ... فما المانع من هذا العمل؟ لعل أحوالنا تتحسن، وملابس أولادنا تتجدَّد، ونعرف اللقمة المُغذية، بدلًا من الاقتصار على الفول والطعمية والمخلل.

– هل أفهم من هذا أنك تعيرينني؟

– حاشا لله يا حاج ... فإذا عيرتك فإنما أعير نفسي ... أنا زوجتك وصرت كشخصك، ما يعيبك يعيبني وما يُفرحك يفرحني وما يضرك يضرني ... الله، جلت قدرته، أعطانا العقل لنتصرف به ولنرفع من مستوانا ودخلنا في هذه الأيام السود ... لا تتعلق الأمور، الآن، بي أو بك وإنما تتعلق بأولادنا ... من حقهم أن يعيشوا حياة أفضل، ويأكلوا لقمة أفضل.

– لا بأس، ولو أن عملك يشقُّ على نفسي ... ولكن بشرط ألا يُسفر عن عملك إهمالك البيت وواجباتك نحوي ونحو الأولاد.

– اطمئن يا حاج ... أنت والأولاد أولًا ... ثم الشئون الأخرى بعد ذلك.

العقيد مهران، رجلٌ مهيب المنظر، قوي الشكيمة، طويل القامة، ثاقب النظرات ... كان عسكريًّا في كل شيءٍ، من قمة رأسه إلى أخمَص قدمه ... إذا أصدر أمرًا فلا بد من تلبيته مهما يكن خطأً أو عسير التنفيذ ... أصيبت زوجته بشللٍ ألزمها الفراش، بيد أن الذي يراها في رقدتها، يتصور أنه يرى ملاكًا طاهرًا هبط من السماء ليقبع على ذلك الفراش.

كانت فاطمة ملزمةً بخدمة زوجة ذلك العقيد طول فترة الصباح من الساعة الثامنة صباحًا، إلى أن يعود من عمله في الثالثة بعد الظهر. تعلَّقت حرم العقيد بفاطمة، إذ تفانت هذه في خدمتها وتلبية طلباتها والعمل على راحتها راحة تامة، فغمرتها بحبها وكرمها ... فلا تعود فاطمة كل يوم إلى بيتها إلا وهي محمَّلة بأطيب المأكولات، مما سر الحاج مهدي، وشكر الله على الخير الجديد الذي هبط على بيته من السماء ... فتغيرت أحوال الأسرة كلها تغيرًا كاملًا ... جرى القرش في أيدي الصغار والكبار، وتبدلت الحال، وتحسن ملبس الصغار، وأصبحت زينب في ملابسها الجديدة، عروسًا بحقٍّ.

ألحَّت زوجة العقيد مهران على فاطمة بأن تجيئها يومًا بابنتها، وليكن يوم العطلة الأسبوعية المدرسية وهو يوم الجمعة. فلبَّت فاطمة طلبها ... وما كاد العقيد يرى زينب حتى راح يقبلها، كما لو كانت ابنته، وبدا أن قلبه قد تعلَّق بهذه الصغيرة بدرجةٍ كبيرةٍ غريبةٍ، تحتاج إلى أكثر من تفسير ... ربما لأنه لم ينجب أطفالًا.

صدرت أوامر العقيد مهران إلى فاطمة بأن تحضر ابنتها زينب معها، كل يوم جمعة، لتُمضي معه ذلك اليوم ... وراح ذلك العقيد الكهل يتفنن في إرضاء زينب، فيمطرها بالهدايا الكثيرة التي تهواها مَن في مثل سنِّها من الفتيات الصغيرات، حتى

كادت زينب تنسى أباها تمامًا، وتعتبر العقيد مهران أباها الحقيقي، الذي ملأ جيوبها بالنقود، ويديها بالأساور والخواتم، وعنقها بالعقود، وأذنيها بالأقراط، وبطنها بالكباب ولحوم الديوك الرومية وأشهى الحلويات والفاكهة.

تعلَّقت زينب بدورها، بمهران كمصدر لا ينضب معينه من الكرم والمحبة والحب ... فتتركه يقبِّلها بنهم، كما يُقبِّل كل أب ابنته، ويتمادى في إظهار حبه الشديد لها، ولا يتورع عن النطق بعبارات الغزل، ثم أباح ليديه أن تتحسسا كل جزء من جسمها بلا استثناء، حتى الأجزاء الممنوع مجرد النظر إليها، وهي لا ترى في ذلك ما يعيب.

كان يوم الجمعة، هو اليوم الذي تبقى فيه زينب مع العقيد مهران في حجرة نومه، بينما تظل أمها في خدمة حرم العقيد في حجرة نومها، ولا تجد مبررًا واحدًا لتدخل حجرة نوم العقيد، إذ كانت أوامره تمنعها ذلك ... كما أن فاطمة كانت تثق في أخلاق العقيد المتزوج بذلك الملاك الرابض في فراش المرض. وكانت حرم العقيد لا تكف عن شكرها، وتقبيل يدها كلما قامت بخدمتها أو مساعدتها على قضاء حاجتها.

استدعى العقيد مهران فاطمة، فجأة ودون إنذارٍ مسبقٍ، وطلب منها أن تكفَّ عن خدمة زوجته؛ إذ ما عادت بحاجة إلى هذه الخدمة، وأعطاها مائة جنيه مكافأة بسيطة عن مدة خدمتها القصيرة.

– وهل هانت عليك زينب؟

– زينب في قلبي يا ست فاطمة.

– حسبت أنك لا تستطيع أن تسلاها.

– هو ذلك، ولكن هذا لظروف زوجتي التي تستدعي أن أُسافر بها إلى الخارج، للعلاج.

– إذن، هناك ما يستدعي نقل السيدة حرمك المصون إلى الخارج للعلاج.

– بالضبط ... وهذا هو سبب الاستغناء عن خدماتك، وعن زينب.

– وهل بوسعي أن أسأل على الهانم عندما تعودان من الخارج؟

– لا بأس ... ولا تنزعجي، فقد يطول بقاؤنا بالخارج لأكثر من سنة ... هكذا يقول الأطباء.

– مصحوبين بالسلامة يا مهران بك، والربُّ يشفي المدام ويعيدها إلينا بكامل الصحة والعافية.

انقطعت فاطمة وابنتها عن خدمة العقيد مهران وحرمه ... وبعد شهرين من ذلك الوقت، ظهرت على زينب أعراض القيء الشديد.

– هل عندك برد شديد، يا كبدي؟

– هو ذلك يا أماه ... خذيني للدكتور.

– ليست هناك حاجة إلى دكتور ... اشربي مشروبًا دافئًا، ومصِّي ليمونة، واستكيني في الفراش.

زالت أعراض القيء والإغماء التي كانت تتعرض لها زينب.

– ألم أقل لك، إنها أعراض بردٍ شديد؟

– صدقت يا أماه ... والحمد لله الآن ... بعد أن تعذبت كثيرًا من هذا القيء الغريب ... وكنت أحس بمزاجي غير معتدل، وليست لي قابلية للطعام.

– هل قصدك أنها أعراض تشبه أعراض الحمل؟

– كفانا الله الشر يا أماه ... ما هذا الذي تقولين ... أنا ما زلت عذراء لم يمسسني بشر.

ما هي إلا بضعة أشهر، حتى بدأت زينب تحس بتحرك جسمٍ غريبٍ في أحشائها، وبدا بطنها كما لو قد أصابه بعض الانتفاخ والورم. أفضت زينب لأمها بما تحس به، وبما يتحرك داخل بطنها.

– هذه أوهام يا زينب ... لا تضعيها في بالك.

– أحاول ذلك يا أمَّاه ... ولكني أحس بشيءٍ غريبٍ يلعب في جوفي.

– إنك واهمةٌ يا زينب ... قد تكون هذه غازات.

– لو كانت غازات لخرجت.

– هل أعدُّ لك كوبًا من اليانسون أو الكراوية يا زينب؟

هذه قد تُريح بطنك من الغازات.

راح بطن زينب يَكبَر وينتفخ ويتكور حتى بدا ظاهرًا للعِيان لا يمكن إخفاؤه ... وهنا أدركت الأم هول الكارثة ... أدركت ما يمكن أن تكون قد تعرضت له ابنتها مع ذلك العقيد الشرير، فراحت تضيق الخناق على ابنتها وتستدرجها لتخبرها كيف استطاع أن يعتدي عليها، وكيف رضيت له بأن يهتك عرضها.

– أخبريني يا زينب، في صراحةٍ، بما فعله معك العقيد، فأنا أمك، كي نتدبر الأمر منعًا للفضيحة.

– ماذا تقصدين؟

– هل اعتدى على عفافك بالإكراه يا زينب، فلم تستطيعي مقاومته؟

– لم يحدث شيء من هذا القبيل يا أماه! ولا أتذكر أنه فعل شيئًا كهذا معي.

– أي قبيل تعنين يا فاجرة؟

– لا تتسرعي بالحكم عليَّ ... تذكري أنك أنت التي أحضرتني إلى بيت العقيد مهران وكنت تتركينني معه بالساعات في حجرة نومه ... وكلانا في خلوةٍ تامةٍ ... كان يُقبِّلني بشراهةٍ ويحتضنني ويتحسس كل أعضاء جسمي ... تذكرت الآن فقط.

– ماذا تذكرت؟

– ذات مرة ... ونحن معًا يُقبلني ويتحسس جسمي ... أعطاني شرابًا، ما إن تناولته، حتى رحت في غيبوبة ولم أُفق منه إلا بعد وقت لا أعرف إن كان طويلًا أو قصيرًا ... وأنت مع زوجته في حجرة نومها.

– هذه هي الحقيقة والواقع ... أعطاك شرابًا مخدرًا واعتدى عليك.

– وما العمل الآن يا أماه؟

– العمل عمل الله ... لا بد من الانتقام من ذلك العقيد الدنيء المجرم.

– وأين هو العقيد الآن؟ ألم يقل لك إنه سيسافر مع زوجته ليعالجها بالخارج ... ولن يعود قبل سنة؟

– كان لا بد له من أن يقول ذلك لإخفاء جريمته البشعة ... لا بد من مقابلته ... سأضربه بالحذاء على أمِّ رأسه، وسأجعل سنة أبيه سوداء ... ما كل طير يُؤكل لحمه.

ذهبت فاطمة إلى بيت العقيد مهران، فوجدت كل شيءٍ على ما هو عليه كما تركته ... لم يسافر، ولم يتحرك ... لم يكن غريبًا في البيت سوى الخادمة الجديدة، التي ترعى زوجته المشلولة.

– أنا فاطمة أم زينب يا مهران بك.

– وماذا أتى بك إلى هنا؟

– جاء بي الشديد القوي ... ابنتي في خطرٍ ... سمعتي وسمعة زوجي وسمعة أسرتي كلها في خطرٍ ... باختصار ... زينب حامل ... ومنك يا مهران بك.

– هذا هراء وجنون!

– لا هراء ولا جنون ... أنت خدَّرتها بالشراب المخدر، واعتديت عليها ... صحح خطأك، وبسرعة ... فالبنت على وشك الوضع ... وحتى هذه اللحظة ... لا يعرف أبوها هذه الحقيقة المرة.

– أيكفيك مائتا جنيه؟

– ولا أموال قارون تكفيني تعويضًا عن شرف ابنتي المسلوب، وشرفنا جميعًا ... يجب أن تتزوجها على سنَّة الله ورسوله.

– وزوجتي المريضة؟

– هات لها ضرَّة تقوم على خدمتها ... زينب تخدم زوجتك.

– وتحمل اسمي؟

– نعم، تحمل اسمك ... هذا ما أردته أنت بفَعلتك الخسيسة ... سوَّلت لك نفسك أن تعتدي على فتاةٍ صغيرة، وتسلبها أعزَّ ما تحتفظ به ... هذا حقها أمام الله وأمام القانون وأمام المجتمع، أن تصبح زوجتك، وأم الطفل الذي في أحشائها منك أيها الذئب البشري.

– وماذا إن لم أتزوجها؟

– سأبلغ البوليس والنيابة، فيقبض عليك ويحكم عليك بالسجن لا محالة ... فابنتي قاصرٌ، والقانون يُعاقب على الاعتداء على القاصر بالسجن لمُددٍ طويلة، فضلًا عن الفضيحة والعار، وربما ماتت فيها زوجتك الطيبة، ثم إن أهل زوجي صعايدة ولا يتركون ثأرهم ... سيقتلونك أثناء المحاكمة، أو حتى بعد خروجك من السجن عند انقضاء مدة الحكم.

– إذن ... فسأتزوج زينب.

– هذا هو عين العقل والحكمة لمن كان في مثل سنِّك ومركزك وظروفك العائلية.

– سأتزوج زينب يا ست فاطمة لأنني أحبها من كل قلبي ... ويشرفني أن أعطيها كل حبِّي وحناني، وأترك لها بعض ما أعطاني الله من خيرات.

– وهكذا تزوج العقيد مهران زينب ابنة الحاج مهدي، الذي لم يعلم، ولن يعلم باعتداء العقيد على ابنته.

ذكرى أقوى من الزمن

قابلتها بعد غياب خمس سنوات ... بدت لي حزينةً مكتئبةً مكمودة الفؤاد ... كأنها تحمل هموم الدنيا كلها فوق رأسها.

– أما زلتِ تتذكرينني يا أغلائيا؟

– وكيف يمكنني أن أنساكَ، وكان قلبي يهيم بحبكَ في يوم من الأيام؟

– ما أسعدني اليوم! إذ أسمع منكِ هذا التصريح، اليوم فقط.

– أي تصريحٍ؟

– قولكِ إن قلبكِ كان يَخفق بحبِّي، أنا وحدي، في يوم من الأيام.

– وهل كنتَ تنتظر منِّي تصريحًا بحبي إيَّاك، في ذلك الوقت؟

ألم نعش معًا، تحت سقفٍ واحدٍ، تارة في بيتكَ بالقاهرة، وطورًا في بيتي هنا، في أثينا؟

– حقًّا ... كانت أيامًا حلوة، ليس بالإمكان نسيانها ... كنتِ يا أغلائيا فيها جميلة فاتنة ... وكان قلبي يهيم بحبكِ حبًّا دونه حب قيسٍ لليلى.

– ومن هما قيس وليلى؟

– هما عاشقان موَلَّهان في الأدب العربي، يقابلهما في الأدب الإنجليزي: روميو وجولييت.

– وهل كنت تراني أستحقُّ كل ذلك الحب الذي أحبه روميو لجولييت؟

– بل كنت أعتقد أن روميو لم يعرف كيف يحب جولييت، ولا قيسًا كيف يحب ليلى ... وكان عليهما أن يتعلما منِّي كيف يحب الرجل معشوقته ... أنسيتِ ما كنت أفعله معكِ مما يدل على أن حبك قد سيطر على عقلي ووجداني بدرجةٍ لم يشعر بها أحد قبلي؟

– حقًّا ... كنت أراكَ تحدِّق فيَّ بنظرات الحب والهُيام في كل آنٍ وكل حين ... وكنتَ تمسك يدي بقبضةٍ من حديدٍ، كأنك تخاف أن يخطفني منك شخصٌ ما ... وهل نسيت أنتَ، ما كنت أفعله معك؟

– حاشا لله أن أنسى أحضان الحنان والعطف والقبلات الطويلة الدافئة، وكرمَكِ الحاتمي وأنا مقيمٌ في بيتك ... كنت تجودين عليَّ بكل ما لديك في سخاءٍ تلقائيٍّ، غير مصطنَعٍ ولا متكلَّف أو مزيف.

– أحببتكَ حبًّا جمًّا ... ولا تنس أنك طلبت يدي من أبي، فوافق من فوره.

– هذا صحيحٌ، ومع ذلك لم نتزوج ... تُرى من كان السبب في عدم إتمام الزواج ... هل هو أنا ... أم أنتِ؟

– لا تُذكِّرني بعَجَلتي القذرة، التي أدفع الآن ثمنها غاليًا ... خدعني ابن بلدي، وأوهمني بأن زواجي به فيه استقرارٌ وأمانٌ أكثر من الزواج بك كمصري يقيم في القاهرة.

– ليس هذا صحيحًا، إذ اتفقنا على أن نُمضي ستة شهور في اليونان وستة شهور أخرى في القاهرة.

– الواقع أن صديقي اليوناني ضحك عليَّ وخدعني.

– وهل كان صديقَكِ بعد أن عرَفتِني أم قبل أن تعرفيني؟

– بصراحة، كان صديقي وعشيقي قبل أن أعرفك ... ولَّما سوَّف وماطل في الزواج بي، اتجهت إليك بكل جوارحي ... أتتذكر المرة الأولى التي التقيت بك فيها؟

– نعم، أتذكرها ولا أنساها. كانت في مكتبكِ بجامعة أثينا، ولا أنسى قدح القهوة الذي جئتِني به وكنت في شديد الحاجة إليه ... وبعد لقائنا ذاك، أخذنا نتبادل الرسائل.

– ثم حضرت إليكَ في القاهرة، وكانت أول زيارة لي ... قمت بها من أجلك، كي أراك وألتصق بك أكثر ... وبذا أنسى حبيبي الأول.

– وعند مجيئكِ إلى القاهرة هرعت لاستقبالك، وصحبتكِ إلى بيتي، وقدَّمتك لأفراد أسرتي على أنك زوجتي المستقبلية ... فأُعجبوا بك ... وأسعدهم هذا الخبر أيَّما إسعاد، وأبدَوا رغبتهم في أن يتمَّ الزواج بعد وقتٍ قصيرٍ، قائلين: «خير البر عاجله.»

– هذا صحيحٌ، إذ أكرموني في بيوتهم، جميعًا، وعاملوني كأختٍ عزيزةٍ عليهم ... لذلك عدت إلى أثينا وأنا مقتنعةٌ تمامًا بأنك ستكون زوج المستقبل، الذي أحظى معه بكل سعادةٍ ... وفاتحت أبي بمشاعري فوافق على رغبتي في الزواج بك.

– لذا، عندما قدمتِني إليه وأنا أزور اليونان، في عزِّ الشتاء، بمدينة فولوس، أقام لي مأدبةً فخمة ضمَّت جميع إخوتك وزوجاتهم، كما ضمَّت كل أخواتك، فأدركت إذ ذاك أنني حُزت رضى أبيك وكل الحاضرين.

– حقيقي ... وفعلًا، أرسل لك خطابًا حدَّد لك به موعد الزفاف بشهر أغسطس من نفس العام.

– وكان ردِّي عليه بالموافقة على هذا الموعد، وما كاد شهر أغسطس يُهِلُّ، حتى طرت إلى أثينا حاملًا الهدايا الثمينة لك ولجميع أفراد أسرتك، حتى خالكِ، إذ كثيرًا ما ركبنا سيارته في جولاتنا معًا باليونان.

– وماذا حدث بعد ذلك؟

– أتسألينني يا أغلائيا، ماذا حدث بعد ذلك، وأنت أدرى الناس به؟ حدث ما لم يكن في الحسبان، ويتندر به الركبان، في كل زمانٍ ومكان ... حدث ما لم يحدث في التاريخ كله ... حدث ما زلزل الأرض تحت قدميَّ، وشلَّ عقلي وفكري فترة من الزمان لا أنساها ولن أنساها.

– الحق معك ... إذ لم تجدني في انتظارك بمطار أثينا، بل وجدت خالي.

– فرُحْت أسأله عنك، وأنا كالمجنون، وعن سبب تخلفك ... فلزم الصمت كأنه لم يسمع صياحي.

– وماذا بعد ذلك؟

– بعد ذلك، حاول الكلام فتلعثم وتلجلج، ولم يدر ماذا يقول ... وأخيرًا قال، والخزي بادٍ على وجهه: «أغلائيا ... سافرت إلى سويسرا.» فقلت له: هل هي رحلة عملٍ فجائية؟ قال: «لا ... بل سافرت ... لقضاء شهر العسل مع زوجها اليوناني.»

– هذا صحيحٌ ... كنت جبانةً، إذ كان يجب أن أنتظرك وأخبرك بتلك الحقيقة حتى لا تُصدم بهذه الصورة التي تحدثت عنها الآن.

– بل حسنًا فعلتِ ... إذ لو حدث وانتظرتِني وأخبرتِني بذلك ... فربما حدث ما لم تُحمد عقباه ... ربما خنقتك كي لا يتمتع بك غيري ... إذ كانت الصدمة في غاية القسوة، ودارت الدنيا أمام عيني، وصار عاليها في واطيها، وواطيها في عاليها ... فتركت خالك وحملت حقائبي محاولًا الهروب من المطار، ورفضت أن أركب سيارة خالك، وأنا أبصق في وجهه ... هذا ما كان بوسعي أن أفعله في ذلك الموقف المخزي الغريب.

– وبعد ذلك ... ماذا فعلت؟

– أخذت تاكسيًّا حملني إلى كالاماكي حيث ألقيت حقائبي في أحد الفنادق، وخرجت إلى الطريق قبل أن أُصاب بالهلوسة والجنون ... وبدون وعيٍ، وجدت نفسي أجلس في هذا المقعد الذي نحن فيه الآن ... وأصبحت أجد في هذا المطعم كل سعادتي.

– هل تتذكر أنني أنا التي عرَّفتك بهذا المطعم؟

– نعم، أتذكر ذلك، ولهذا أحببته، وصرت من زبائنه منذ عشرين سنة ... أجيء إليه شهرًا في كل عامٍ ولي فيه مائدةٌ مختارةٌ لا يجلس إليها غيري ... وقد أحبني صاحبه كل الحب، ويُكرمني ويعتبرني أخًا له ... وعرَّفني بزوجته وأولاده، وكلهم أصدقائي، أقدم لهم الهدايا المصرية، ويقدمون هم لي هدايا يونانية.

– عندهم حقٌّ ... فأنت إنسانٌ تُحَبُّ ... ومن يعرفك، لا يمكن أن ينساك.

– ولكنك نسِيتِني.

– من قال ذلك؟ أنت في بالي، وفي عقلي وفكري، بل في أعماق قلبي ... لا تغيب عن مخيلتي ليل نهار، حتى هذه اللحظة، التي أراد الله القدير أن أُقابلك فيها، كي أبوح لك بأن حبك لم يمت في قلبي ... وإنما هو باقٍ ... وخطاباتك التي تفيض بعبارات الشوق والحب المستعِر، ما زالت في حوزتي أخاف عليها الضياع لأنها عزيزةٌ عليَّ ... وكم من مرة كنت فيها وحيدةً في مخدعي، فأُخرج أحد تلك الخطابات وأقرؤه، فأسرح في عالمٍ آخر، وأتصوَّر أنني بين ذراعيك تضمني وتعصرني ... أما هداياك، فما فتِئْت أستعملها ... حتى وأنا مع زوجي ... ولا يجرؤ هو على أن يقول لي: «من أين لكِ هذا؟» وإلا انطلقَت الجحيم من عِقالها، وسمع ما لم يسمعه طول حياته ... وهو يعلم هذا تمامًا.

– شكرًا لك على هذا الكلام الحلو ... إن فيه عزاء لي بعض الشيء ... وعلى فكرة ... هل أنجبت أطفالًا يا أغلائيا؟

– للأسف، لم أنجب ... وهذا من أسباب تعاستي في حياتي الزوجية مع هذا الزوج ... فتَر حبه لي ... ومات حبي له ... وما عادت لي إلا الذكريات القديمة التي كانت لي معك ... إنها أقوى من أن يعفو عليها الزمن أو ينساها.

من مثلك يا منى؟

وأخيرًا عادت مُنى، بعد أن اختفت من بيت أسرتها مدة ستة شهور كاملةٍ ... ظلت الأم طوالها تبحث عن ابنتها التي اختفت تمامًا، كأن الأرض ابتلعتها ... لم تعثر لها على أثرٍ ... ولم يسبق اختفاءها أية بوادر تدلُّ على سبب ذلك، وربما كانت خيطًا يوصل إلى مكانها.

سألت الأم جميع الأقارب، ولكن ما من أحد منهم رآها منذ مدة، ولم تزرهم هي بدورها كما كانت تفعل بين آنٍ وآخر.

بحثَتْ عنها لدى كل صديقاتها، غير أنها لم تصل إلى نتيجة ... وأخيرًا ذهبت إلى صديقتها الحميمة سامية لعلها تعرف شيئًا عن سر اختفاء منى ... إلا أن سامية لم تعلم باختفاء منى إلا من والدتها ... ولكنها أطلعت أم منى على بعض أسرار ابنتها، فقالت ضمن ما قالت: منى تحب شابًّا اسمه عمرو، حبًّا قد يصل إلى العبادة ... كانت تلتقي به كثيرًا ويسيران معًا على كورنيش النيل، لساعاتٍ طويلةٍ سعيدة ... ربما سافرت معه.

– وأين يمكنني العثور على عمرو هذا يا سامية؟

– كل الذي أعلمه عنه، أنه يعمل في الأردن، وراح يُغري منى على أن تسافر معه إلى هناك، حيث يتزوجان، وتعمل معه بمرتب محترم.

– وهل وافقت منى على السفر مع عمرو هذا؟

– طبعًا، وافقت ... لدرجة أنها كانت تبحث عمن يُقرضها بعض النقود لشراء تذكرة السفر، على أن تُرسلها إليه بمجرد أن تعمل في الأردن.

– وهل أنت متأكدةٌ مما تقولين يا سامية؟

– متأكدةٌ جدًّا يا طانط. فأنا صديقتها، وموضع ثقتها وأسرارها.

– إذا كان الأمر كما تقولين، وعند جهينة الخبر اليقين، فلا بد من البحث عن هذا العمرو.

– تبعًا لما أخبرتني به منى: يسكن عمرو في شارع الملك فيصل بالهرم.

– ألا تعرفين رقم المنزل؟

– لم تخبرني به.

طفقت الأم تبحث عن عمرو بشارع الملك فيصل، متنقلة من بيت إلى بيت، حتى اهتدت إليه، بعد لأي.

– أين منى يا عمرو؟

– من تكون منى هذه؟ ومن سيادتك أولًا؟

– أنا أم منى، التي استطعت أن تُحبب إليها السفر معك إلى الأردن.

– ها أنا ذا واقف أمامك يا سيدتي ... فكيف تكون ابنتك قد سافرت معي؟

– وما قولك في أن هناك إشاعةً قوية، يرددها الكثيرون، بأنك على علاقة بابنتي، وأنك السبب في اختفائها، وتعرف مكانها؟

– هل اختفت منى؟

– لا تتظاهر بالسذاجة ... أولًا، تقول من هي منى، كأنك لا تعرفها ... والآن تسأل هل اختفت ... لا بد أن لك يدًا في اختفائها ... إن لم تخبرني أين أخفيت ابنتي، فسأخطر الشرطة بكل ما علمت.

– من حقك أن تفعلي ذلك يا سيدتي ... ولكن ماذا تكون الحال إن اكتشفت الشرطة أنني بريءٌ من هذا الاتهام؟ إنني مثلك، لا أعلم أي شيءٍ عن منى.

– هل تنكر أنك تحب ابنتي منى؟

– تصحيحًا لكلامك، ابنتك هي التي تحبني. وقد حاولت، في أحد الأيام، أن تُلقي بنفسها في النيل إن لم أتزوجها ... ولكنني أرفض أسلوب الضغط هذا، ولذلك ابتعدت عنها، خشية أن تفعل شيئًا بنفسها وتتهمني كي تجبرني على الزواج بها.

– إذن، فهناك احتمال أن تكون ابنتي قد انتحرت، بطريقة ما.

– جائز، والله أعلم!

– في هذه الحالة، تكون أنت السبب في انتحارها ... سأخرب بيتك يا عمرو.

– أُقسم لك يا سيدتي على أنني لا أعلم شيئًا عن اختفاء منى، ولا عمَّا حدث لها ... ولكن، إذا كانت قد انتحرت، فلا بد أن يكون البوليس قد علم بانتحارها، وأرسل إليك لتعرفي مصيرها وتدفنيها بيديك.

– هل أفهم من هذا أن منى ما زالت على قيد الحياة، وأنها لم تمت؟

– هو ذلك يا أمَّاه ... وثقي تمامًا بأنني أرثي لحالك، وأعدك ببذل كل مساعدة أستطيعها في البحث عن منى ... إذ يعزُّ علي أن أسمع أنها هربت من البيت دون أن تعرفوا مكانها ... وأنا أعلم كيف يكون قلب الأم في مثل هذه الحال.

– أهذا وعد شرفٍ منك يا ولدي؟ أنا بحاجةٍ إلى كل مساعدة.

– هذا وعد شرفٍ مني يا والدتي ... إذ عندي علم بالأماكن التي تعمل بها ... أو على الأصح، التي كانت تعمل بها، والتي كانت السبب الرئيسي في غضبي منها، ونبذي إيَّاها.

– في أية أعمال كانت منى تعمل يا عمرو؟

– كانت تعمل في كباريهات شارع الهرم، ويستوجب عملها أن تبقى هناك طول الليل، حتى طلوع الفجر، في حوالي الساعة الرابعة صباحًا.

– يا خبر أسود! ابنتي تعمل في كباريهات شارع الهرم!

– هذا هو ما حاولت أن أُثنيها عنه، إلا أنها أصرَّت على هذا العمل الليلي.

– وهل تعرف اسم الكباريه الذي تعمل به منى؟

– لم أحاول أن أسالها عن اسمه. ولكن، ما أسهل العثور عليها في كباريهات شارع الهرم.

– هل تعدني بالبحث عنها يا ولدي عمرو؟

– سأبذل قصارى جهدي يا سيدتي.

– بارك الله فيك، وأرجو أن تعلمني بمجرد معرفة اسم الكباريه الذي تعمل به هذه الملعونة.

– إن شاء الله ... اطمئني يا أمي، واعتبريني ذراعك اليمين في البحث عن منى.

– شكرًا جزيلًا يا ولدي ... شكرًا يا عمرو ... كلك مرؤة وشجاعة وشهامة ... ليتها تزوجتك، ولم يحدث هذا الذي حدث.

– كل شيءٍ قسمةٌ ونصيب، والرب يعمل ما فيه الخير للجميع.

انصرفت والدة منى، وتنفَّس عمرو الصُّعَداء إذ وصلت المسألة إلى هذا الحد، ولم تتعقد الأمور فيصل الخبر إلى والد عمرو، فيثور إذ لا يروقه أن يتورَّط ابنه في موضوعٍ شائكٍ كهذا، مع فتاةٍ ساقطةٍ مثل منى، لا أمان لها ولا تتورع عن خَلق المشاكل، إذ كما يقولون: لا تستبعد الرفس على البغل النجس. ومما يدل على جرأتها الشريرة، أنه هان عليها أن تختفي من أمها، غير عابئةٍ بدموعها وحيرتها وتعبها في البحث عنها في كل مكان.

عنَّ لعمرو أن يُطلَّ من شرفة منزله بشارع الملك فيصل ... وكأن الله، جلَّ تدبيره، قد أراد له أن يرى ما لا ترتاح إليه نفسه ... فقد خُيِّل إليه أنه شاهد منى تنزل من سيارة فيات ١٣١، في ثيابٍ فاخرةٍ، وحلي لامعة، ومجوهرات ثمينة برَّاقة، ودخلت العمارة المجاورة لبيته، بعد أن وقف البواب وضرب لها تعظيم سلام.

نزل عمرو بسرعة وتقدَّم من ذلك البواب، وسأله عن صاحبة هذه السيارة، قال: هي مستأجرةٌ الشقة المفروشة عندنا، تدفع فيها خمسمائة جنيه شهريًّا، ويبدو أنها تعمل راقصة في ملهًى ليلي بشارع الهرم.

– وكيف عرَفت ذلك؟

– زائروها كثيرون، وكلهم من العرب ... يأتون بها في سياراتهم الفارهة، قرب الصباح، ولا يخرجون إلا ظهرًا ... وهذا يحدث كل يوم تقريبًا.

– ومن الذي يدفع إيجار هذه الشقة المفروشة؟

– مليونير عربي، يقول البعض إنه سعودي، ويقول آخرون إنه كويتي، ويقول غيرهم إنه أردنيٌّ ... على العموم، هو عربيٌّ، ما في ذلك شك.

قرر عمرو أن يُقابل منى وجهًا لوجه ... فتربَّص لها أمام المنزل المجاور لمنزله.

– أهلًا، منى!

– نعم يا سي عمرو ... ماذا تريد منِّي؟

– رأيتكِ من شرفتي، فأوحشتِني.

– أوحشتك؟ منذ متى هذه العواطف، وقد كنت من قبلُ باردًا كلوح ثلجٍ.

– ولكنك أثرتِني اليوم.

– بأية مناسبة؟

– بمناسبة الحب الذي بيننا.

– كان زمان وجبر ... كنت ساذجة وعبيطة ... لا شيء الآن اسمه حب.

– أنا لا أصدق أُذني، الآن! ... منى تقول هذا الكلام؟! ... ليس هذا معقولا بالمرَّة!

– ولم لا؟ الحب في الروايات، وفي الأفلام ... الحب كان موضة قديمة وعفا عليه الدهر ... خليك اليوم في الواقع.

– ولماذا اخترتِ أن تقيمي في البيت المجاور لبيتي تمامًا؟

– عسى أن تراني في حالتي هذه، وترى ما أنا فيه من عزٍّ وفخفخة ... أنا الآن أشتريك، وأشتري عشرة من أمثالك يا صعلوك ... كنت تظن نفسك من درجةٍ أعلى من درجتي.

– وما زلت كذلك.

– هذا هو الوهم، الذي يُسعدني أن تعيش فيه أبد الدهر ... تظن نفسك مِلكًا بقروشك ... أما أنا، فعندي بدل القرش، ملايين.

– زادك الله من نعمه ... وهل أنت سعيدةٌ بهذه الملايين؟

– كل السعادة ... المغفَّلون لا حصر لهم ... إنهم يدفعون الألوف لي، ثمنًا للابتسامة والنظرة والتحية ... دنيا حلوة ... ليالي الأنس، يا بطل.

– وأين أنا الآن في قلبك؟

– في قلبي؟ «فشر». أنت في نظري ملك الشحاذين ... لا تستحق منِّي إلا نظرة إشفاق وإحسان ... وداعًا ... وحذار أن تعترض طريقي بعد ذلك.

ذات يوم، جلست الأم وقد أسندت رأسها على راحتيها حزينةً، تفكر في ابنتها منى، وأين يمكن أن تكون قد اختفت ... وإذا كانت تعمل في كباريهات شارع الهرم كما يقول عمرو، ففي أي كباريه تعمل ... وما طبيعة عملها في ذلك الكباريه، وأين تُقيم، ومع من تُقيم ... وبينما هي في هواجسها هذه، إذ بجرس الباب يدقُّ، فأسرعت سعدية أخت منى تفتح الباب ... وما إن فتحته حتى أطلقت صرخة فرحٍ مدوِّية جلجلت جو البيت، وجعلت الأم ترفع رأسها عن يديها وتقول: من القادم يا سعدية؟

– أختي منى يا أمَّاه!

– منى ... منى! شكرًا لك يا رب، يا منعم!

زغردت الأم وقبَّلت ابنتها منى التي طال غيابها ستة شهور كاملة ثم أخذت تنظر إلى منى من فوق إلى تحت، ومن تحت إلى فوق، ولا تصدق عينيها ... ما هذه الثياب الفاخرة! وما هذه الحلي التي تَصِلُّ كلما رفعت ساعدها لتسلِّم على أمها وعلى شقيقتها! وما هذه المجوهرات كلها ... سبحان المعطي ... لم يعطها الله بيديه الاثنتين، وإنما كما يقول الريفيون: «فتح الزكيبة فوق رأسها!»

– أين كنت يا ابنتي؟

– كنت أعمل، وأعمل ليل نهار.

– وهل نسيت أن لك أمًّا؟

– لم أنسَ ... وإلا لما حضرت إليك اليوم ... خذي يا أماه.

– ما هذا؟

– مبلغ صغير؛ خمسمائة جنيه! (الأم تزغرد) وهذه مائة جنية لأختي سعدية ومائة جنيه أخرى لأختي نادية (الأم تزغرد) ... والآن، وداعًا يا أماه! عندي شغل ... لا تنشغلي عليَّ، ولسوف أمرُّ عليك من آن إلى آخر وأعطيك ما يجود به عليَّ الرحمن.

– ولمن السيارة التي سمعت صوتها تقف أمام بابنا؟

– إنها سيارتي، ومن عرق جبيني.

– (الأم تطلُّ من الشباك وتنظر إلى السيارة) إنها سيارة لوكس يا منى! ... إلهي يفتحها في وجهك يا أم السعد، يا منى يا بنت الأكابر، يا أصيلة، يا شريفة ... أثمر فيك العيش والملح والتربية ... ربنا يطيل في عمرك يا منى ... اذهبي إلى عملك مصحوبة بسلامة الله ... ولا تفرطي في عملك هذا، يبدو أن خيره كثير ... فليأتك الخير من الباب الواسع.

العروس للعريس، والجري للمتاعيس

أحب زوجته الإيطالية كل الحب، إذ كانت رائعة الجمال الإيطالي الصميم، ذات عينين خضراوين واسعتين وفم ياقوتي صغير كالخاتم، ولها جاذبٌ حلو تشتهر به الإيطاليات. وفوق ذلك كانت حميدة الأخلاق، تحب الخير للناس كما لو كان لنفسها. وهي أستاذة ماهرةٌ في تدبير المنزل، تراعي جانب الاقتصاد في النفقات، ولا ترغب في إرهاق مالية زوجها رغم ثرائه العريض ... تأكل الأطعمة الشعبية المصرية، كالفول المدمَّس، والفول النابت، والطعمية، والبِصارة، والعدَس وما أشبه، دون أن تتذمَّر أو تتأفف أو تشكو.

تعلمت فلورا اللغة العربية، تتكلَّمها بلهجةٍ ولكنة إيطاليتين تُضفِيان على كلامها كثيرًا من الجمال والعذوبة ... يروق من يستمع إليها أن يسمع نبرات صوتها الجميل ... فأحبها كل جيرانها والمتصلون بها وبزوجها الأستاذ مجدي صاحب مصانع الكراسي المعدنية المشهور في داخل البلاد وخارجها.

أنجبت فلورا ولدين، حرصت على تربيتهما تربيةً صالحة، ولقَّنتهما اللغة الإيطالية بغير عناءٍ فهي الأم، والمربية الأولى، والمدرسة الأولى. وربما كانت أُولَيات الكلمات التي تعلمها ولداها إيطالية. مضت حياة الأستاذ مجدي وفلورا رتيبة إلى حدٍّ ما، لا يكدر صفوها، في بعض الأحيان، سوى القليل النادر من المنغِّصات والاختلافات في معالجة بعض الأوضاع والأمور ... ومع ذلك لم يفكر مجدي أبدًا في الانفصال عن زوجته فلورا الإيطالية، إذ تزوجها نتيجة حبٍّ عنيفٍ قوي.

كانت فلورا تَهوَى السهرات بطبيعتها، والطبع يغلب التطبُّع، وكثيرًا ما أقامت الحفلات الليلية داخل منزلها، تدعو إليها أصدقاءها من الجيران، كما يدعو إليها الأستاذ مجدي المقرَّبين إليه من موظفي مصانعه.

ذات ليلةٍ، لاحظ مجدي زوجته، في إحدى هذه الحفلات، تتحدث مع أحد المدعوِّين، وطال الحديث بينهما ... فلعب الفأر في «عبِّه» وارتاب في وجود علاقة آثمة بينها وبين من كانت تتحدث معه، وزاد في ارتيابه أن ذلك الشخص كان كثير التردد على بيته ... فكاد يُجَن، وفعلًا فقد صوابه، فترك لزوجته البيت، وأخذ ولديه، وأقام في فندقٍ بحي الزمالك، بعيدًا عن بيته وعن زوجته.

ما هي إلا أيام قلائل حتى أدرك مجدي خطأه، وخطأ تصرفه، فندم على ما بدر منه، وعاد إلى بيته، وعوَّل على ألا يشك مرة أخرى في سلوك زوجته الوفية.

بدأ الجيران يسمعون صوت صياح فلورا وهي تتناقش مع مجدي، كأن الاستقرار لم يعد إلى ما كان عليه ... يُسمَع صوتها بالنهار، وأحيانًا في أواخر الليل. وكانت دائمًا في حالة هِياجٍ ... وبعد ذلك ببضعة أيام، ساد الهدوء البيت ... مرضت فلورا مرضًا بسيطًا، ثم لفظت روحها الطاهرة إلى باريها.

تناثرت الأقاويل والشائعات حول موت فلورا، إذ هناك أناس لا هَمَّ لهم سوى اغتياب غيرهم وانتهاز أيَّة فرصة لإشباع نفوسهم من تلك الهواية القذرة؛ فمِن قائل إن فلورا لم تمت مِيتة ربها، بل لزوجها يد في موتها ليتخلص منها، بأن أثار أعصابها ... ومِن قائل: كان يسومها العذاب ألوانًا فحرمها نعمة النوم ليلًا، وهكذا كان الجيران يسمعون أصوات صياحها ليلًا حتى قبيل الفجر، كما سلبها راحة البال بالنهار ... ومن قائل إن لمجدي معشوقةً مصريةً كان يُحضرها إلى البيت أمام بصر وسمع زوجته، فنهشت الغيرة قلب الزوجة، فماتت ... وهكذا.

ولكن الله وحده، علَّام الغيوب، هو الذي يعلم كيف ماتت فلورا وهي ما زالت في الأربعينيات من عمرها ... وقد تخرَّج ولداها في الجامعة، وتسلموا وظائفهم بنجاحٍ يطيل عمرها أربعين سنة أخرى.

ما هي إلا بضعة أشهر حتى دبَّت في شقة فلورا حركةٌ غريبة ... عمَّال يعملون على قدمٍ وساقٍ في تركيب أجهزة تكييف الهواء في كل حجرةٍ وبهوٍ ورَدهة وحمام ومطبخ، بينما يَطلي آخرون الحوائط بألوانٍ جديدةٍ زاهية ... وغيرهم ينزعون الأرضيات ويضعون أرضيات جديدة بالموكيت.

سُئلت الخادمة عن سبب هذا النشاط الغريب في شقة الأستاذ مجدي، فقالت: وما وجه الغرابة في هذا؟ يقوم سيدي بعمل هذه الإصلاحات والتجديدات كي تبدو الشقة جديدة في كل شيءٍ، ولا يظهر فيها الطابع السابق، وبذا ينسى آلامه التي سبَّبها موت مدام فلورا ... وخصوصًا وأن ولديه سيتزوجان قريبًا، ويتركانه وحده في هذه الشقة الواسعة.

– ولِم لم يعمل هذه التحسينات إلا بعد وفاة زوجته؟ كان بوسعه أن يفرحها بها وهي حيَّةٌ فقد كان يحبها حبًّا لا يختلف فيه اثنان.

– الحقيقة أن مجدي بك سيتزوج فتاةً مصريةً صغيرة السن، تعمل في قسم الإدارة بمصانعه … فاشترطت عليه طلاء الشقة كلها باللون الوردي الزاهي، وعمل كل تلك التركيبات الجديدة. وهو لا يمكنه أن يرفض لها طلبًا … ومن فرط دلالها طلبت كل أجهزة تكييف الهواء هذه، وأجهزة المطبخ كلها بالكهرباء لقشر البطاطس والخضراوات، وقطعها شرائح أو مكعبات، وشَيِّ الدجاج آليًّا بجهاز يقطع التيار الكهربي عندما يتم النُّضج، وغير ذلك من الآلات الحديثة … كما اشترطت عليه أن يكون الحمامان والمطبخان بالسيراميك. تكلفت هذه التحسينات، حتى الآن، ما يقرب من مائة ألف جنيه … مع أن المرحومة مدام فلورا كانت ترضى بالقليل كي لا ترهقه بطلباتها … وكما يقول المثل: «حوشي يا خايبة للغايبة.»

– مسكين مجدي بك … مصاريف باهظة.

– نعم، وما خفي كان أعظم … المجوهرات والحلي والملابس والأثاث، وغير ذلك … بالشقة ثماني حجرات ومطبخان وحمامان، إذ كانت شقتين وأُزيل الفاصل بينهما، غير أن البابين ما زالا موجودين.

– وهل نسي حبه فلورا، ولَمَّا يَمضِ على وفاتها سوى بضعة أشهر تُعَد على أصابع يدٍ واحدة.

– لا يريد مجدي بك أن يعاني من الفراغ، لا سيما بعد زواج ولديه الذي سيتم في حفل زفافٍ واحدٍ، في ليلةٍ واحدةٍ، بأكبر فنادق القاهرة، بعد شهر من إنجاز كل الإصلاحات والتحسينات في هذه الشقة.

راح بعض الجيران يضربون كفًّا على أُخرى، وهم في دهشةٍ مما يرون ويسمعون، ويترحَّمون على فلورا، التي كانت ترضى بأرخص الأطعمة، رغم ما لدى زوجها من أموالٍ طائلةٍ لم تظهر على حقيقتها إلا بعد وفاتها.

مضى العمَّال في عملهم يشتغلون ليل نهار حتى كادوا ينجزون كل عملهم ويفرغون منه … واقترب ميعاد زواج الولدين.

وهكذا أوشك حلم مجدي يتحقق بالزواج من الفتاة الفاتنة التي هي أصغر سنًّا من أصغر ولديه.

لم تسمح المقادير بأن يَغمِط مجدي حقَّ فلورا في حياتها، ويتمتع بعد موتها … فحدث ما لم يكن في الحسبان. المهندس سعيد يعمل بمصانع مجدي بك، ويهيم بحب

نفس هذه الفتاة التي سيتزوجها مجدي، وقد خطبها رسميًّا، إلا أنها فسخت الخطوبة، لتعيش في تلك الفخفخة وذلك الثراء ... تتمرغ فوق الأموال بغير حسابٍ ... فحزَّ في نفس سعيد أن تنبذه خطيبته بهذه الطريقة المزرية ... فصمم على قتل مجدي ... وفعلًا، أطلق عليه سيلًا من الرصاص أراده في لحظة.

وهكذا، ساد صمتٌ رهيبٌ على شقة مجدي، وأُوصِدت جميع نوافذها، وانعدمت الحياة بداخلها، وأبى الولدان العودة إليها، إذ لم يرضيا عن تصرفات أبيهما، وموقفه الشاذ من أمهما ... وعَدَلَا عن فكرة الزواج التي أجبرهما عليها أبوهما كي تخلو له الشقة مع عروسه الجديدة، فقد كان من شروطها أن تخلو لها الشقة ويتزوج الولدان ويقيما في مكانٍ ما غير شقة أبيهما ... وهكذا ... «إن ربك لبالمرصاد».

البادي أظلم

تفترق سفن الحياة وتلتقي في بحر العمر المتلاطم الأمواج، والذي تهبُّ فوقه العواصف العاتية كما يمرُّ عليه النسيم العليل، والحب كفيل بألَّا يطيل الفُرقة بين الشتيتين.

كانت «نيرمين»، يوم عرفتها، فتاة في ميعة الصبا، ونضرة الشباب ... تسطع القوة والبراءة بين عينيها الواسعتين الزرقاوين، وتفيضان من قلبها البكر ... ويتجلَّى وجهها فاتنًا رائع الجمال، من خلال النقاب. وهي ذات شعرٍ سَبط أسود فاحمٍ تلقيه مرسلًا طويلًا فوق ظهرها الناصع البياض، وابتسامةٍ ساحرةٍ حلوة، وأنفاس معطرة ... وصوت عذب كالنغم الحالم ... أما نظراتها فتُرسل السهام تخترق القلوب وتستقر في أعماقها ... وقَوامها ممشوقٌ مستقيمٌ كعود الزان، ليس بالطويل ولا بالقصير.

كانت نيرمين بحق، غادة فائقة الحسن والملاحة، لذا ملكت على قلبي وجناني، فأحببتها حبًّا لا مزيد عليه، سحرني وجعلني أسير هواها ... فإذا ما التقيت بها احمر وجهي خجلًا من ذلك الجمال الفتَّان الجذاب، وزاد خفقان قلبي ... فأظل أنظر إليها بالساعات، نظرة الهائم الولهان، ولسان حالي يقول: «أيتها المالكة القلوب، سبحان من خلق فسوَّى، يا ساحرة الألباب، ومحيِّرة العقول بحسنك الباهر. ما أشد ما أسرْتِني بمحيَّاك اللطيف، وجمالك الأخاذ البديع الذي دونه جمال البدر في الليلة الرابعة عشرة. أنت وسْط أترابك ولِداتك، كالشمس وسْط الكواكب، إذا طلعَتْ لم يَبدُ منهن كوكب.»

لم يدر بخَلَدي أن نيرمين هذه ستكون في يومٍ ما، مصدرًا للمتاعب والأوصاب وانشغال البال، وأنني سأُحرَم رؤية خديها الأسِيلَين وخصرها النحيل وهي تتمايل تمايُل الأغصان، وتتيه تِيه الغيد الحسان ... فهي بحقٍّ غادة هيفاء، فريدة المثال، لها وجه يُخجل الأقمار ... وترتدي أفخم الثياب التي تزينها شتى الحلي الثمينة والمجوهرات الغالية ...

لكن شاءت الأقدار أن ترمي بي هذا المرمى، فحُرِمْت طلعة محيَّاها، ووداعة أساريرها، وحديثها العذب الطَّلِي.

غابت نيرمين عن ناظري، فجرحت قلبي جرحًا غائرًا لا يندمل، فأحنيت رأسي للقدر القاسي مكرهًا ... والله يعلم أن حبِّي نيرمين هذه حب عنيف تحكَّم في نفسي، وملأ عليَّ يقظتي وأحلامي. ورغم هذه المحنة بقِيتُ أُداعب الأمل الأوْهَى من خيوط نسيج العنكبوت، ومن أنفاس المحتضَر.

سلخت من عمر الليل وقتًا طويلًا أقضيه في الطرقات هائمًا على غير هدى، يطاردني طيفها.

ظلت نيرمين، التي اختفت من حياتي، هي الأمل المرتقب ... غير أنه تناهى إلى سمعي أنها تزوجت وسافرت مع زوجها السفير إلى فرنسا، فانهارت أعصابي، وخَبَتْ شجاعتي، وضاقت عيناي وغارتا في مَحجِرَيهما، وصارت الدنيا في وجهي أضيق من سَم الخِياط، من هول ما أقدمتْ عليه هذه الفتاة المستهترة العاتية، التي أوتيت من الجرأة والدهاء وسعة الحيلة، ما لم يملكه بشر وما يعجز عنه إبليس نفسه.

غدوت عندئذ كعود الثقاب المبتل، لا جدوى فيه، وانهزمْتُ تمامًا، وتركت العلاج للأيام من ذلك المرض الذي كلفني أعصابي ومنامي وراحتي وفرحي وهنائي ... فأغرقت نفسي في العمل، ليل نهار كوسيلةٍ فعَّالة لتفادي هول الصدمة التي فاجأتني بها الأقدار، ونزل علي بها الزمن الغادر، ولم أعلم أنه استلَّ سيفه البتَّار وسلطه على رقبتي.

وهكذا غدت نيرمين، على مرِّ الأيام، ذكرى لم يبق منها في حياتي سوى اسمها ليس غير.

حقًّا، ما أسرع تعاقب الساعات والأيام، وتوالي الشهور والأعوام ... فتغيرت الحال والأوضاع، ووهن العظم منِّي واشتعل الرأس شيبًا، وتغضَّن الوجه، وذبلت العينان، وارتعشت اليدان والأصابع.

دقَّ جرس التليفون بعد أن مر من الليل أكثره، وظل يدق بشدةٍ، فانزعجت وساورتني الهواجس، وكان النوم يداعب أجفاني ... ومع ذلك، أمسكت بسماعة التليفون بيدٍ ترتجف، خشية أن أسمع ما لا يسر من الأنباء.

– ألو.

– أنائم أنت؟

– طبعًا نائم، هل تظنينني أرقص في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

– الساعة الآن الرابعة فقط بعد منتصف الليل ... فهل تنام قبل ذلك؟

– في الساعة الرابعة، يا سيدتي، يشقُّ الفجر بخنجره الفضي حجاب الظلام، معلنًا بزوغ يومٍ جديد ... وعلى أية حالٍ، أنا رجلٌ صاحب أعمال، لا بد أن أكون متيقظًا تمامًا في أدائها ... من أنتِ؟

– أنا من كنت يومًا كل شيءٍ في حياتك، وصرت الآن مجرد اسم ... أنا نيرمين.

– هذه مفاجأةٌ جد قاسية – أتتذكرينني اليوم فقط؟

– وهل مضت مدة طويلة؟

– مضى ما يقرب من ثلاثين عامًا يا حلوة!

– أليس هذا وفاء مني أن أطلبك بعد كل هذه السنين؟

– كلا ... ليس هذا وفاء، بل لأمرٍ ما تذكرتِني ... وماذا تريدين مني يا نيرمين؟

– أريد أن أطمئن عليك، وعلى أحوالك وصحتك.

– في هذه الساعة الغريبة يا نيرمين؟

– أنا شخصيًّا لا أنام إلا بالنهار.

– هل حضرتك راقصة؟

– لقد تغيرتُ يا صديقي العزيز.

– ماذا تقصدين؟

– أنا موتورة، ويجب أن أنتقم.

– ممن يا أختاه؟

– من الرجل الذي تزوجته ضد رغبتي، إذ أعماني بمعسول كلامه، وخطفني من القاهرة إلى باريس ... أبعدني عن أمي وأبي وحبيبي.

– وهل كان لك حبيب؟

– كنتَ حبيبي ... وما زلتَ حبيبي.

– هذا هو الكلام المعسول الذي لا يكلف المرء شيئًا، وإن قشعر القلوب، بما يقوله اللسان الكذوب ... ومن أدراكِ أنني ما زلت أحبكِ أو حتى أتذكرك؟

– أنا واثقةٌ من كلامي، ومن عمق الحب الذي كان بيننا.

– الحب الذي دُستِه تحت قدميك يا نيرمين، تتكلمين عنه الآن، وقد عفا عليه الدهر، وأصبح أثرًا بعد عَين ... إنك تنفخين في «قربة» مقطوعة.

– سأنفخ حتى تشتعل النار من جديدٍ ... فحبك إيَّاي موجود، ولكنه خامد ليس إلَّا.

– عبثًا تحاولين يا نيرمين ... هل نسيت أنك متزوجة، وربما كنت أمًّا.

– صدقت ... أنا أمٌّ لثلاثة بنات، لهن جمالي الذي سباك، أنت أولًا، ثم سبى والدهن الذي عقد قرانه بي وتزوجني وصحبني معه إلى باريس، في أقل من أسبوع.

– ولِم لَم تخبريني؟

– أخبرك بماذا؟ خشيت عليك من الصدمة ومن أي تصرفٍ أحمق يمكن أن تقوم به ... سحرني المستقبل الذي رسمه لي ذلك الشاب الوسيم، الذي اشتراني من أبي، بأغلى ما تُشترى به النساء.

– وهل كان أبوك بحاجة إلى من يشتريك وهو الرجل الثري؟

– سنة الكون: المال يجذب المال ... والمال يشتري الجمال.

– وهل بوسع المال أن يشتري الحب؟

– صدقت يا أمين ... لا يمكن أن يشتري المال الحب ... حاولت خلال ثلاثين عامًا أن أشعر بجمال الحب ففشلت ... ولولا بناتي الثلاث لتمَّ طلاقي منذ سنين وسنين.

– والآن ... ماذا تبغين؟

– الآن، قلبي يبحث عن الحب الذي ضاع.

– ولكني لست ذلك الشاب الوسيم.

– وأنا ما عدت تلك الفتاة الساذجة، التي أغرتها المظاهر الخدَّاعة الكاذبة ... أريدك عقلًا أعتمد عليه، وقلبًا أرتوي من حنانه ... أريد أن تُربِّت يداك على ظهري وخدِّي، وتجري أصابعك على شعري ... وتحدِّق عيناك في عيني ... وأسمعك تهمس في أذني بكلمة «أحبك» ... وأقول لك بدوري: إنني أعشقك وأهيم بك.

– هذا عشم إبليس في الجنة ... أما سمعت المثل القائل: «الصيف ضيعت اللبن»؟ هذا هو الجنون بعينه.

– نعم، ليكن بيننا حبٌّ إلى درجة الجنون ... من نوعٍ يتفق وأعمارنا.

– آسف ... لست على استعدادٍ لأن أكون كهلًا ومجنونًا ... لا أنفعك في دور العاشق المتيم ... لقد طعنت قلبي، والجرح لم يندمل بعد ... والآن تطلبينني لتحقيق أغراضك في الانتقام من الشخص الذي هجرتِني من أجله ... هل أنا «بعد فضلة»؟ وقلبي لا يزال يَدْمَى بسببك.

– دعني أعالجْه. دعني أكُنْ له البلسم الشافي.

– ولِم لَم تعالجيه وأنت «مدموازيل»، بل تأتين الآن وأنت «شَيْخَوازيل»؟ ... آسف جدًّا يا نيرمين، حالتي ميئوس منها ... لا ينفع فيها كل عقاقير وبلاسم الأرض ... ماذا؟ أتبكين؟

– نعم، أبكي دمًا، لا دموعًا ... ليتني ما تعجَّلت في الماضي وتصرفت تصرف أكبر حمقاء على وجه البسيطة ... ليتني أموت الآن، وأنا أسمعك ترفض حبِّي إيَّاك المتأجج في صدري وقلبي.

– «دموع القوادر حواضر» ... لقد نبذتِني منذ ثلاثين سنة، مت خلالها في قلبك ... هل سمعت عن موتى يقومون ويعشقون؟ ... وداعًا يا نيرمين.

– يا لك من شخصٍ قاسٍ عديم الرحمة.

– شكرًا يا ملاك الرحمة.

الشهيدة

لم تؤمن أمنية بالحب ولا بسلطته القوية على المحبِّين، وتعتبره حالة نفسية مفتعلة ولعبًا بالعواطف ليس وراءه سوى النكد والاكتئاب والحزن والكمد.

اشتهرت أمنية بين جيرانها، وبين زميلاتها في المدرسة، بعدائها الشديد للرجال كمصدر لذلك الشيء اللعين الذي يُطلِق عليه المحبُّون اسم «الحب».

عزفت أمنية هذه عن قراءة أي كتابٍ يتضمَّن قصة حبٍّ أو يتكلم عن الحب، مهما يكن بقلم أبرع الكتَّاب وأشهرهم. وقد تعودت أن تقول لصديقاتها: سأحاول أن أعيش على هواء ليس فيه أية تيارات من ذلك الشيء المَقيت الذي يسمُّونه الحب.

فتردُّ عليها زميلاتها بقولهن: سرعان ما ستختنقين يا أمنية، فكل هواء يُغلِّف الكرة الأرضية مشبع بتياراتٍ عنيفةٍ من الحب الشديد. فالحب هو أوكسجين الهواء الذي لا تُمكن الحياة بدونه، وإلا لخَلَق الله، جلَّت حكمته، الناس جميعًا ذكورًا أو كلهم نساء، بل خلقهم من ذكر وأنثى كي يتحابا ويتزوجا وينجبا الذريَّة لحفظ الحياة على الأرض، وإلا لانقرض الجنس البشري من المسكونة … اذكري لنا اسم امرأةٍ واحدةٍ عاشت ثم ماتت دون أن تعرف الحب. فإن لم تحب هي، أحبها الرجال بالعشرات … لقد خلقت المرأة للحب، وخلق الرجل ليحب.

فتقول أمنية بعنادٍ: ليس هذا صحيحًا بالمرة. فلا يحمل الهواء أيَّ حبٍّ. بل يأتي الحب كما يقول شوقي: نظرة، فابتسامة، فسلام، فكلام، فموعد، فلقاء!

فترد عليها إحدى زميلاتها، قائلة: تعرَّف عليَّ فتاي الذي أُحبه بأسلوب يختلف تمامًا عن بقية أساليب التعارف الأخرى … تعرَّف عليَّ بالخطابات والمراسلة … فبينما نحن في الطريق من البيت إلى المدرسة، يُسلِّم أحدنا الآخر رسالة … فيرد عليها برسالة أخرى يعطيها لصاحبه ونحن عائدان من المدرسة إلى البيت بعد الظهر.

وتقول زميلة أخرى: أما أنا، فقد تعرفت على فتاي عن طريق أخي، فهما صديقان حميمان. فمن كثرة تردُّده على بيتنا لزيارة أخي رأيته واستلطفته، فحدثت النظرات والابتسامات والكلام وأحبَّ كلٌّ منَّا الآخر. وشرعت ألتقي به في الخفاء خارج البيت، فيبث كل واحد صاحبه ما يعتمل في صدره وقلبه من حب للآخر ... وهكذا عرَفت الحب الذي تغلغل في أحنائي.

وتقول ثالثة: أما أنا، فعرفت حبيبي عن طريق التليفون. كان الرقم الذي ردَّ عليَّ في التليفون خطأً ... أي غير الرقم الذي طلبته ... فإذا بي أسمع صوتًا عذبًا أعجبني، ويبدو أن صوتي أعجبه، فتبادلنا الحديث ذا الشجون، أي الذي يجر بعضه بعضًا. وهكذا أحبَّ كل منَّا الآخر. وكان لا يحلو له الكلام إلا في الهزيع المتأخر من الليل والأسرة كلها تغطُّ في نومٍ عميقٍ، كي نتكلم في حرية ونحن مطمئنان.

وقالت رابعة: أما حبيبي، فعرفته عن طريق الدرس الخصوصي ... إنه أستاذ اللغة الإنجليزية الذي علَّمني الحب ... يظل طول الدرس يُقبِّل يدي ووجنتي ... ثم تمادى فصار يحتضنني ويتحسس أجزاء من جسمي ... وهكذا أحببته وصرت أُقابله خارج البيت فننهل معًا من كئوس الحب مترعة.

ذهلت أمنية مما سمعت، فقالت: إذن، فكلكن عاشقات، وإني لأنظر إليكن كمخبولاتٍ مجنونات، تلعبن بالنار في وضح النهار ... أمَا قرأتن قول السيدة ملك حفني ناصف إذ قالت:

إن الفتاة حديقة وعفافها كالماء موفور عليه بقاؤها

بئس ما ينتظركن من مصيرٍ أسود.

فتقول الزميلات: بل أنت المنبوذة غير المرغوبة، لا يتقدم نحوك الرجال لأنك نصف حلوة ... أما سمعت قول الشاعر:

يا رب خلقت الجمال وقلت يا عبادي اتقون
وأنت جميلٌ تحب الجمال فكيف عبادك لا يعشقون

الحب جميلٌ يا أمنية، ومن لم يحب، لم يؤد للشباب ما عليه من واجب.

كان هذا أحد المواقف التي كثيرًا ما تكررت بين أمنية وزميلاتها، كلما حلا لها أن تعلن ثورتها ضد الحب ... فيسخرن منها ويتهمنها بأنها معدومة الأنوثة.

لم يؤثر كلام الفتيات هذا في أمنية، بل ظلت تعتبر نفسها محصَّنة ضد الحب، ولا يمكن لكيوبيد أن يُطلق سهمًا يخترق قلبها مهما يكن حادًّا.

ذات صباح، خرجت الصحف تحكي مأساة فتاةٍ وُجدت مقتولة، وجثتها مُلقاةٌ على جانب الطريق الصحراوي الموصل إلى مطار القاهرة الدولي ... وإلى جانب الخبر، صورة القتيلة التي لم تُعرَف شخصيتها. وكانت هي صورة أمنية المسكينة.

بينما كانت أمنية عائدةً من زيارة لخالتها في المعادي، انقضَّ عليها فجأة أربعة شبَّان يحملون المُدَى، وجذبوها من شعرها إلى سيارتهم، وانطلقوا بها إلى مكانٍ مهجورٍ حيث حاولوا اغتصابها. ولكنها قاومتهم بعنفٍ وشراسةٍ، ولم ترهبها تهديداتهم بقتلها بتلك المُدَى المسلولة. ومع ذلك قامت بينهم وبينها معركةٌ وحشيةٌ ... هم يريدون السطو على عفافها وإشباع شهواتهم الجنسية، وهي العزلاء تريد الدفاع عن شرفها، بكل ما أُوتيت من حَولٍ وطَول، ضد أولئك الوحوش الآدمية. هانت على أمنية حياتها ولذتها وهي تعلم علم اليقين أنها مقتولةٌ لا محالة ... فانتابتها نوبةٌ من الصراخ والعويل، ولكنها كانت كمن يصرخ في وادٍ، لم تسمعها سوى السماء ... وإذ عجز أولئك المجرمون السفلة عن نيل غرضهم منها راحوا يطعنونها بالمُدَى في جنونٍ، حتى لفظت آخر أنفاسها بعد مئات من طعنات مُدَى قرن الغزال، وهي ما زالت بكرًا محتفظةً بعذريتها، كما قرر الطبيب الشرعي الذي شرَّح الجثة.

وهكذا عاشت أمنية، تحمي قلبها من الحب وسهامه، وماتت وهي تحمي عرضها وشرفها من العار والتلوث والضياع.

اعتبرت صديقات أمنية وزميلاتها بالمدرسة أن أمنية ماتت شهيدة الأخلاق والقيم، بعد أن ضربت أروع مواقف الشجاعة والبطولة في مقاومة الخطيئة والرذيلة، وأخس ما يمكن أن ينال من آدمية الإنسان. عُلِّقت في مدرسة أمنية صورة كبيرة لهذه الشهيدة الباسلة، التي آثرت أن تموت من أجل الشرف، مرفوعة الرأس، على أن تحيا مسلوبة العرض، ذليلة الروح والنفس.

الذكرى القاتلة

حاولت حنان أن تُغمض عينيها وتستسلم للنوم، ولكن النوم تعذَّر عليها في تلك الليلة الطويلة ... كان عقلها مشغولًا بذكرى أليمة تعرَّضت لها منذ أكثر من عشر سنوات، إلا أنها كانت ماثلةً في ذهنها كما لو كانت قد حدثت لتوِّها، أو منذ ساعاتٍ قلائل.

حنان فتاة تتمتع بقدر لا بأس به من الملاحة والجاذبية تحسدها عليهما كل فتاةٍ ... وهي ممشوقة القد يميل قَوامها إلى الطول المقبول. ولذا تهافت على طلب يدها كثير من الشبان من ذوي المراكز المرموقة والثراء وشرف النِّجار ... غير أن حنان كانت ترفضهم جميعًا دون أن تُبدي أسباب الرفض ... وإذا ما ألحَّت عليها أمها في معرفة سبب عزوفها عن الزواج وقد بلغت السن المناسبة للزواج، وإن كل فتاة في هذا العالم تتطلع إلى الزواج والاستقرار في الحياة، وتصير عضوًا له فائدته في المجتمع الإنساني. كانت حنان تقول لأمها: كلامك صحيحٌ ومعقولٌ يا أمَّاه، ولكني لو تزوجت فستجدين نفسك وحيدة في بيتك، وأنا لا أستطيع أن أتركك وحدك، بعد أن مات أبي وتركنا كِلتَينا وحدنا، وحرمنا عطفه وحنانه ... أنت كل شيءٍ في حياتي يا أمَّاه ... أنت التي تعبت في تربيتي هذه حتى وصلت إلى هذه السن، ومهما أفعل أو أبذل من تضحية في سبيل راحتك، فلا يمكن أن يفي بجزءٍ بسيطٍ من فضلك عليَّ.

كانت الأم تقتنع بهذه الحجة القوية وليدة صوت العقل ... إذ كانت تعتمد على المُرتَّب الذي تحصل عليه حنان من عملها، لأن زوجها لم يترك لها سوى معاشٍ بسيطٍ جدًّا يكاد لا يفي بإيجار البيت وثمن الخبز وحده.

أحبت حنان أمها كل الحب، لا تدخر وسعًا في إسعاد قلبها وتوفير وسائل الراحة لها. وكانت الأم هي التي تقوم بأعمال البيت كلها، وسيدة المطبخ ... وبذا تريح ابنتها من

تلك الأعمال، إذ هي لا تعود من عملها قبل الساعة الرابعة عصرًا يوميًّا، وعادة ما تكون مرهقة من كثرة العمل، فتجد المائدة معدَّةً كأحسن ما يكون الإعداد لاستقبال ضيفٍ عزيز، وعليها ما لذَّ وطاب، إذ كانت الأم خبيرة بشئون الطهي، تصنع عدة ألوانٍ من أبسط الأغذية وأرخصها ثمنًا.

بعد ذلك تخرج حنان لقضاء بعض مطالب البيت ... وأحيانًا تصحب أمها للقيام ببعض الزيارات للأهل والأصدقاء، ثم تعود لمشاهدة التليفزيون مع أمِّها، وبعده تهجع لتريح جسمها وأعصابها، ثم تنهض في الصباح؛ لتذهب إلى عملها وافرة النشاط موفورة الصحة والقوة، فتبدأ يومًا جديدًا.

إذا رأيت حنان بقوامها الممشوق، ورأسها المرفوع، قرأت في عينيها ومضات الحزن العميق، كأن في حياتها سرًّا تُخفيه، ويعنيها ألا يعرفه أحدٌ، مهما يكن مقربًا إلى قلبها.

حنان مثال الفتاة المتديِّنة الصالحة، البارَّة بأمها ... تعمل على راحة أمها أولًا، ثم ترى بعد ذلك مصلحة نفسها، واضعة نصب عينيها قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾. وكانت تحاول جاهدةً أن تبدو مبتسمةً أمام والدتها كي لا تشعرها بأنها تُضحِّي براحتها ومستقبلها وسعادتها من أجلها ... وكانت أحيانًا تسمع ضحكاتها تنطلق من فمها مجلجلةً قويةً، كأنها أسعد الفتيات بحياتها في هذه الدنيا ... وفعلًا كانت راضيةً بحياتها مع أمها، تطلب من المولى عز وجل أن يحفظ لها أمها متمتعة بكامل الصحة والقوة.

عبثًا، حاولت حنان أن تنام، فاستسلمت للبكاء الخافت، وراحت تسبُّ هذا الجيل وشروره، والدنيا بأسرها، إذ عادت إلى ذهنها ذكرى ذلك اليوم المشئوم في حياتها، قوية صارخة، لا يبرح ذهنها ما حدث لها.

ارتدت حنان، في ذلك اليوم الأسود، خير ما عندها من ثيابٍ، وتحلَّت بكل ما لديها من مجوهرات ... وسارت في الطريق الهوينى، لا تلوي على شيء، وإنما تنشد السير في حدِّ ذاته كرياضة تحفظ لها شبابها، بينما هي في الواقع تستعرض جمالها الفتَّان، بعينيها اللتين في أطرافهما حَوَر، ورأسها الشامخ المرتكز على عنقٍ طويلٍ ناصع البياض، وقوامٍ ممشوقٍ حلو، تتهادى كعود الخيزران ... وكان اهتمامها بحذائها الحديث الطراز ذي الكعب العالي، وبجَوربها الرفيع المزركش، يفوق كل حدٍّ ... فكان من يشاهد حنان وهي سائرةٌ هكذا، ينجذب إليها تلقائيًّا بمجرد أن يقع بصره على ذلك الحذاء وفوقه الجورب

الذي يبدي أكثر مما يخفي ... يبدي ساقين جميلتين، سبحان من سوى خلقهما. فإذا ما رفع بصره إلى فوق صُعق من فرط الملاحة والفتنة، ومن الرَّدْفين الصاعدين الهابطين.

وبينما هي تمشي هكذا تتهادى، إذ وقفت إلى جوارها فجأةً سيارة فارهة، ونزل منها ضابط عالي الدرجة على كل كتفٍ من كتفيه شارات عسكرية يخطئها العدُّ. وبدون مقدماتٍ، أمرها بأن تركب السيارة ... وكانت لهجة أمره مخيفةً تلقي الرعب في القلب، ومن هول المفاجأة لم تستطع حنان التفكير، بل انقادت لأمره، وركبت السيارة إلى جانب ذلك الضابط المجهول ... وهي لا تدري كيف انصاعت له، أو كيف فعلت ذلك.

– ماذا تريد منِّي يا حضرة الضابط؟

– بعد قليل تعلمين.

– ولماذا لا تُعلمني الآن؟

– لا أريد أن أسمع كلمةً واحدةً منك، وإلا صفعتك على وجهك.

– ومن تكون يا هذا ... ولأي ذنبٍ تصفعني؟

– قلت لك: اخرسي.

وهكذا انطلق الضابط بسيارته يُسابق الريح، حتى وصل إلى القناطر الخيرية ... وهناك في شارعٍ مظلمٍ شديد السكون، جذبها من ساعدها وصعِد بها إلى شقةٍ مفروشةٍ ... وقبل أن تفتح فاها بكلمةٍ أو تطلق صرخةً من حنجرتها، هجم عليها كالذئب الكاسر، ونزع ملابسها عن جسدها ثم افترسها وهي مذهولةٌ خائفة، وسلبها أعز ما تحتفظ به الفتاة.

جثت حنان عند ركبتي ذلك الضابط، وقد هتك عرضها، وطلبت منه أن يتزوجها، ولو لليلةٍ واحدةٍ ثم يطلِّقها، كي يستر عرضها ... إلا أن ذلك الذئب نسي لغة الكلام وآثر الصمت الرهيب، وجذبها مرة أخرى إلى سيارته، وانطلق بها في منطقة ليس فيها ديار ولا نافخ نار، حيث أوقف السيارة وأمر حنان بأن تنزل منها.

توسلت حنان إلى ذلك الوحش الآدمي أن يُعيدها إلى حيث اختطفها، ولكنه دفعها بكلتا يديه دفعةً قويةً ألقت بها على الأرض خارج السيارة التي مرق بها في سرعةٍ جنونية ... واختفى شبحه من حياتها حتى الآن.

وجدت حنان نفسها في هذه الورطة الثقيلة، فنهضت تمشي وهي لا تعرف إلى أين تتجه، ولكن قادتها العناية الإلهية إلى العمار، فذهبت إلى بيتها، وآثرت أن تُخفي سرَّها عن الجميع، وخصوصًا عن أمها، التي لو علمت بمأساة ابنتها هذه لصدمت صدمةً قد

تُودي بحياتها على الفور ... وهذا ما جعلها تكتم سرَّها، إذ كانت تحب أمها غاية الحب وتبذل كل ما في وسعها لتمنع عنها الهموم والأحزان.

كان سرها هذا هو سبب تعاستها، ومصدر سحابة الحزن التي ارتسمت على عينيها.

في هذه الليلة، استحال النوم على حنان، إذ راح شريط هذه الذكرى الأليمة، يلفُّ ويدور في عقلها ومخيلتها وأمام عينيها ... صار كابوسًا حيًّا يتراءى أمام عينيها، دونه أي كابوسٍ يراه النائم ... كادت تصرخ من هول ذكرى ما تعرضت له، ولكنها كتمت صرختها كي لا توقظ أمها من نومها، وهي راقدةٌ إلى جوارها، في فراشٍ واحد.

الغاية تبرر الوسيلة

تتمنى ماجدة أن يكون فارس أحلامها شابًّا وسيم الوجه، قوي البنية، مفتول العضلات، عريض ما بين المنكبين، جميل القسمات، حلو البسمات، وعلى قدرٍ متوسطٍ من الثراء، تحبه ويحبها، ثم يتزوجان ليعيشا معًا حياةً هنيةً هادئة سعيدة، لا يعكِّر صفوها معكر، على أن يكون مستقيم السير والسلوك، لا يعرف غير بيته.

ماجدة فتاة شديدة الإعجاب بنفسها لما حباها به الخلَّاق العظيم من جمالٍ فذٍّ، وسحرٍ فاتنٍ وفير، فشعرها كَستَنائي جميل، ناعم طويل، تُرسله فوق ظهرها فيزيده جمالًا على جمال، ووجهها كاستدارة البدر في ليلة التمام، وبشرتها بيضاء ناعمة، مشربة بحمرةٍ ورديةٍ جميلة، وعيناها سوداوان واسعتان لهما رموش طويلة، وحاجباها مزَجَّجان طبيعيًّا، وأنفها يشبه السيوف التي يصنعها سُرَيج في الدقة والاستقامة، وفمها صغير لا يتسع لمرور إصبع واحدة، وشفتاها ياقوتيتان جميلتان، إذا ابتسمت افتَرَّ ثغرها عن صفَّين من الأسنان تخالهما اللؤلؤ المنظوم ... وبالاختصار هي بارعة الجمال، لذا تشترط أن يكون فارس أحلامها جميلًا في كل شيء.

إنها في الثامنة عشرة من عمرها، ومن حقِّها أن تختار فتى أحلامها من ذلك النوع الرائع الممتاز الذي هو أمنية كل فتاةٍ تَنشُد الراحة والاستقرار والجمال وهدوء البال ... وتتطلَّع إلى أن تُنجب ذريةً صالحةً تَقرُّ بها عيناها.

غير أنه كلما نظرت ماجدة حولها، لم تجد صورة شابٍّ واحد تنطبق أوصافه على الفارس الذي يُداعب خيالها ... ولكنها كانت تتحلَّى بالصبر الجميل وتؤمن بأن فتاها سيظهر في يومٍ يريد الله لها فيه أن تسعد ... فهي متعلمةٌ حصلت على الشهادة التوجيهية

بتفوقٍ إذ كانت الأولى على جميع الناجحين في محافظتها. كما أنها لبقة الحديث لا يقطر فمها إلا عسلًا مصفًّى رغم فقر أبيها، وينطبق عليها قول الشاعر الحكيم:

لا خيل عندك تُهديها ولا مال فليُسعِد النطق إن لم تُسعِد الحال

مرض أبوها المسنُّ، وأقعده المرض عن العمل، فعوَّلت على أن تساعده بأن تعمل ولو عاملة في مصنع، ونظرًا لجمالها الفتاك، وجدت عملًا بسرعةٍ في مصنع يمتلكه رجل في سن والدها. فشكرت ربَّها الذي وفقها إلى عمل تكسِب منه رزقها ورزق أبيها ورزق أختها، بالحلال.

أخذت ماجدة تنفق على أبيها المريض، ولا تبخل عليه بأجر الأطباء وثمن الدواء. كما تنفق على أختها الصغرى زينب التلميذة بالمرحلة الإعدادية … أما والدتها فخطفها الموت منذ عامين، ولم يتحمل الأب صدمة رحيل زوجته الفاضلة، فجأة دون أي مرضٍ، فاعتلَّت صحته وأصيب بالشلل التام الذي أقعده عن العمل. وكما يقولون: «العبد في التفكير، والربُّ في التدبير.» وجدت ماجدة هذا العمل ليظل البيت مستورًا، وتستمر هذه العائلة الصغيرة في حياتها إلى أن يقضي الله أمره لكل فردٍ من أعضائها الثلاثة.

اقترب امتحان زينب في الشهادة الإعدادية، فاضطرت ماجدة إلى إحضار مدرس خصوصي لزينب، ليساعدها في اللغة الإنجليزية.

حضر الأستاذ عصام، فما كادت تقع عليه عينا ماجدة حتى توسمت فيه فارس أحلامها الذي تخيَّلته وتصورته منذ أن بدأت تفكر في مستقبل حياتها الزوجية … فحرصت على أن تقدم له قدح القهوة بنفسها في كل مرةٍ، وتردُّ على ابتسامته لها بابتسامةٍ عذبةٍ حلوة ذات معنى لا يفهمه إلا العاشقون.

جاء اليوم الذي فاتح فيه عصام ماجدة بحبه إيَّاها، وبرغبته في الارتباط بها … فرقص قلب ماجدة طربًا وظنت أحلامها قد تحققت … ولكن شيئًا خفيًّا منعها أن تندفع بالموافقة، إذ لم تكن الظروف العائلية التي تحيا فيها تسمح لها بحالٍ ما أن تتزوج، بينما صحة والدها تتدهور وتزداد سوءًا يومًا بعد يوم، ومرتَّبها لا يكاد يكفي الإنفاق على البيت.

لاحظت زينب انفراد ماجدة مع عصام، عقب كل درس بالساعات، وهما يشربان الشاي أو القهوة معًا … فسألتها من باب الفضول، قائلة: أراك معجبةً بالأستاذ عصام يا ماجدة.

– هو ذلك يا زينب ... فما رأيك فيه؟

– عصام رجلٌ طيبٌ يمتاز بصفاتٍ حميدةٍ ويعاملني أحسن معاملة، ويتفانى في شرح الدروس لي، كما أرجو ألَّا يغيب عن بالك، أنه ما عاد يتقاضى منَّا أية أتعاب، منذ أن وقع في غرامك يا ماجدة.

– فعلًا يا زينب ... نعم الرجل الأستاذ عصام ... هو كما تقولين، وأرى فيه كل صفات الزوج الذي أفكر فيه.

– يُخيَّل إليَّ أنه لا بد أن يطلب يدك.

– نعم، حصل ذلك يا أختاه.

– وهل وافقت؟

– لم أعطه ردًّا شافيًا. فللزواج مطالب ماديةٌ غير متوفرةٍ لدينا، بينما أبوك فقيرٌ ومريض لا يعمل ... وأنا شخصيًّا لا يمكن أن أتزوج إلا إذا تحسنت حال معيشتنا وسمحت بتلبية كل لوازم الزواج.

– أعلم أنك كنت دائمًا تفكرين في مواصفات بعينها تتوفر في فتى أحلامك ... فهل وجدتِها كلها في الأستاذ عصام؟

– وجدت فيه معظم ما أريده ... والجميل في الأمر أنه يحبني، وهو الذي فاتحني في أنه يريد الارتباط بي، على سُنَّة الله ورسوله ... كأن الله قد شاء أن يحقق لي أجمل أحلامي.

– إذن، فعجِّلي ولا تسوِّفي.

– كل شيءٍ مرهونٌ بأمر الله يا زينب.

– ونعم بالله.

اشتدَّ المرض على الوالد العجوز، فلفظ أنفاسه الطاهرة ... وهكذا وجدت زينب وماجدة نفسيهما وحيدتين في هذه الدنيا الغادرة، لا أنيس لهما ولا جليس.

حاول عصام أن يستغل هذا الظرف الجديد الذي حلَّ بالأختين، فراح يلحُّ على ماجدة في أن يعقد عليها ... ولم يكن يعلم أن هناك شيئًا جديدًا قد جدَّ.

فقد حضر صاحب المصنع إلى منزل ماجدة ليعزيها في وفاة والدها ... وأخذ يتردد على البيت بحجة السؤال وتقديم الخدمات ... فلاحظت زينب ترحيب ماجدة بصاحب المصنع العجوز الذي في سن أبيها ... فساورتها الهواجس، فقالت لماجدة: ما بال الحاج عزوز يزورنا أكثر مما يلزم ... أكلُّ هذه الزيارات من أجل تعزيتنا في وفاة أبينا؟

– ليس بالضبط يا زينب ... إنه يعرض عليَّ خدمات أخرى مُغرية.

– مثل ماذا؟

– بصراحة، يعرض علي أن يتزوجني، إذ يعيش وحده بعد أن ماتت زوجته منذ أكثر من عشر سنوات، وبعد أن تزوجت ابنته الوحيدة وتركت البيت لتعيش مع زوجها على ساحل البحر الأحمر.

– وماذا عن عصام؟

– أنا في حيرةٍ يا زينب ... فلو تزوجت عصامًا ما استطعنا أن نجد ما نأكل به، وما يجعلك تواصلين دراستك.

– وماذا تكون الحال لو تزوجت صاحب المصنع، العجوز؟

– ستُفتح أمامي كنوز الدنيا يا زينب ... ستكون لي سيارةٌ محترمة، ونصيب في المصنع، إذ سيكتب لي نصفه بمجرد موافقتي على الزواج به ... وسينفق على تعليمك حتى تنتهي من المرحلة الجامعية ... ثم إن حياتنا معه ستكون في بُحبوحةٍ وبذخٍ ... لنا طاهٍ، وخادمة، ونعيش عيشة الأثرياء.

– وماذا عن فارس أحلامك، الذي طالما تمنيت الزواج به، وشغل تفكيرك منذ أن عرفته ... وكان كل أمَلِكِ أن تركبي معه الجواد الأبيض، ويطير بك مثلما يطير الرمح في الهواء.

– أحلام طيشٍ يا زينب ... لا بد من التفكير بعقل ... أمامي كفَّتا ميزان: كفة الرجل العجوز ترجح كفَّة عصام المسكين، الذي يعيش على مرتبه الشهري البسيط المحدود.

تزوجت ماجدة الحاج عزوز، الذي منعها النزول إلى المصنع، وجعلها سيدة البيت المعزَّزة المكرمة، يغمرها بحنانه وعطفه وخيراته ... وخصَّص لزينب حجرة مؤثثة بأفخر الأثاث بها مكتب ومكتبة وجهاز تكييف، وأنفق عليها ببذخٍ حتى تخرَّجت في كلية الآداب، قسم اللغة الإنجليزية، وعملت مدرسة لتلك اللغة بمدرسة ثانوية ... وبالجملة: أكرم الله هاتين الأختين فعرفتا البذخ بعد شظف العيش.

لم ينسَ عصام ماجدة ولم يغب طيفها عن مخيلته لحظة واحدة. فلما علم زواجها من الحاج عزوز صاحب المصنع، أدرك الظرف الذي ألجأ ماجدة إلى هذا الزواج المادي، وتذكر قول الشاعر:

إن الدراهم في المجالس كلها   تكسو الرجال مهابةً وجلالا

فهي اللسان لمن أراد فصاحة   وهي السلاح لمن أراد قتالا

ومع ذلك، فلم يحمل عصام في قلبه أية ضغينةٍ لماجدة، أو حقدًا عليها ... وما كاد يسمع أخبار زينب المفرحة، وتخرجها في كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية، حتى تقدم إلى ماجدة طالبًا الزواج من أختها زينب.

لم تفاجئ ماجدة عصامًا بالرفض، بل طلبت منه أن يمهلها فترة للتفكير والتروي، إذ تتوقف على الزواج حياة العمر، وليس هو صفقة تجارية.

– كم من الوقت تستغرق هذه المهلة؟

– شهرًا، على الأقل، وبعدها تعلم قرارنا بالقبول أو بعدمه، وعلى أيه حالٍ، الزواج قسمة ونصيب ... والرب يعمل ما فيه خير الطرفين.

انصرف عصام حزينًا إذ كان يأمل استجابة طلبه، ولكنه لم يفقد الأمل، وراوده إيمانه بالله وبأن الزواج مكتوبٌ للمرء منذ أن تحمل به أمه.

اختَلَتْ ماجدة بزينب وأخبرتها بالغرض من زيارة عصام، وأبدت لها رأيها ونصيحتها كأخت كبرى بمنزلة أمها، فقالت: عصام لا ينفعك يا زينب ... ومن صبر وتأنَّى نال ما تمنى ... غدًا يأتيك طبيب أو مهندس يستطيع أن يهيئ لك حياة أفضل.

– ولكن عصامًا يعرفنا منذ مدة طويلة، وعرفنا أخلاقه، ومهنته من مهنتي.

– عصام مدرس إعدادي، «لا طلع ولا نزل»، ومرتبه لا يكفل عيشة متوسطة، وجُل اعتماده على درس من هنا ودرس من هناك، أي إذا لم يحصل على درسٍ رجَعْتِ إلى عيشة الكفاف يا زينب ... أي إن دخله على كفِّ عفريت يا زينب ... ولا تنسَي أنك خريجة جامعة، ويجب أن يكون عريسك في مستواك العلمي، على الأقل.

– ولكنك يا ماجدة كنت متيمةً بعصام، وكان مثلك الأعلى.

– كان هذا زمن الأحلام يا زينب، أيام أن كُنا فقراء وأريد أي شيء أستند إليه ... أما الآن، وقد جاد الرب علينا بالخيرات، وتبدلت الحال، فلما جاءت اللحظة الحاسمة، حكَّمت عقلي فاخترت من يسترني ويحميني من الجوع والفقر والحاجة.

– صدقت يا ماجدة ... وعلى العموم، لم يكن عصام فارس أحلامي، بل مجرد مدرس ساعدني على فهم المقرر المدرسي ... وكنت أُجامله إكرامًا لخاطرك على زعم أنك ترغبين في الزواج به يومًا ما ... وعلى هذا، فعصام مرفوضٌ تمامًا ... وتبعًا لنصيحتك ومشورتك يا أختاه، أنا لا أريد حياة كلها فقر وتقتير وجوع وعذاب ... كفى ما ذقته في طفولتي عقب مرض أبي وموته ... وكما ضحيتِ بمثلك الأعلى من أجلي، فإني بدوري، أصغي إلى نصيحتك الغالية، وأنتظر حتى يأتي من يَصلُح لي، ويكون قسمتي في هذه الحياة.

مضت مدة غير طويلةٍ على هذا الحديث بين الأختين ... وذات يوم قالت ماجدة لزينب: عندي لك نبأٌ مفرحٌ يا زينب.

– شكرًا يا أختاه ... هات ما عندك.

– تقدم إليَّ يطلب يدك زوجٌ محترم.

– إن كان قد نال استحسانك، فهو كذلك بالنسبة لي، فأنت الآن بمثابة والدتي.

– هو فارس من فرسان أحلامك، ظهر فجأة يا زينب ... فمنذ بضعة أيام، جاءني يطلب يدك مني ابن أخت الحاج عزوز ... وهو شابٌّ يتمتع بصحةٍ وافرة، ومنظرٍ جميل، وهندامٍ أنيق ... هو مهندس في إحدى شركات البترول بالغردقة ... فأمهلْتُه إلى أن أعرض عليك الأمر وأعرف رأيك وقرارك ... فماذا ترين؟

– سبق أن قلت لك، إن أمري بيدك يا أختاه، وما يروقك يروقني.

– شكرًا يا زينب. أرأيت صِدق ما قلته لك: إن من صبر وتأنى، نال ما تمنى. وكذلك صدق القائل:

يا بائع الصبر لا تشفق على الشاري   فدرهم الصبر يَسوَى ألفَ قنطار
لا شيء كالصبر يشفي جُرح صاحبه   ولا حوى مثله حانوت عطار

وَعَدَ ذلك الشاب بأن يزورنا عصر اليوم ... فاستعدي للقائه.

لبست زينب أفخر ما عندها من ثياب، وتزينت بالحلي والجواهر، وتعطَّرت بأغلى العطور ... وتمَّ اللقاء وحاز القبول من الطرفين.

وما هي إلا أشهر قلائل حتى تزوجت زينب المهندس «ياسر»، فأقام الحاج عزوز لها حفل زفافٍ صار حديث القاصي والداني ... وانتقلت العروس مع عريسها إلى الغردقة.

وهكذا حقق الله لكل من ماجدة وزينب، ما كان أبوهما المشلول يدعو الله أن يحققه لهما، ويستر عرضهما بالحلال، بحكمته وحسن تدبيره.

عاشق الإنجليزية

تعرفت عليه في ظروف عملٍ ... كان محتاجًا إلى أن أُساعده في تعلُّم اللغة الإنجليزية، رغم أنه لم يكن طالبًا بالجامعات المصرية، ولا بالجامعة الأمريكية.

الأستاذ سمير رجلٌ كامل الرجولة، طويل القامة، أسمر اللون، جميل القسمات، رياضي الجسم، مفتول العضلات. وفوق كل ذلك، كان حلو اللسان، لا تسمع منه إلا كل ما هو جميلٌ مفيد ولا ينطق أبدًا بأية ألفاظٍ بذيئةٍ أو نابية، مما يدل على سمو خلقه وعريق منبته وحسن تربيته ... ويتصف كذلك بالشجاعة وعلو الهمة والكرم الحاتمي الأصيل.

زارني الأستاذ سمير بمنزلي، بعد ظهر أحد الأيام، فجلس قُبالتي يحكي لي طرفًا من حياته، ويبين لي السبب أو الأسباب التي جعلته لا يعرف كلمة واحدة في اللغة التي يشعر نحوها بعشقٍ لا يعرف مصدره، ربما لأنها اللغة الوحيدة التي إذا تكلم بها الإنسان في أي ميناء، أو في أيِّ مطار، وجد من يرد عليه بها.

لم يكن أمامي إلا أن أُشجِّعه على الإلمام بهذه اللغة التي أهواها أنا شخصيًّا وأجيدها كل الإجادة، وساعدني على التبحر فيها والتعمق في كل قواعدها، مهما تكن غامضةً، أن تخصصي الأصلي هو اللغتان اللاتينية والإغريقية القديمة ... وكلنا يعلم أن اللغة الإنجليزية مشتقَّة من اللاتينية، وكثير من جذور ألفاظها مأخوذ من اللغة الإغريقية القديمة.

ذكر لي الأستاذ سمير أن الإنجليزية تُفيده في تحقيق نجاح أكبر في عمله الذي يتفانى في إجادته وتوسيع آفاقه.

كنت أذهب إلى مكتبه الأنيق في تلك الشقة المتواضعة بحي باب الخلق ... ولم أجد صعوبةً في العثور على مكان عمله، فقد اكتشفت أنه هناك أشهر من نارٍ على علم، يعرفه كل أصحاب المتاجر بتلك المنطقة التي يقوم فيها دكانه ومكتبه الخاص، ومخازنه.

استمات معي الأستاذ سمير في تلقي خفايا اللغة الإنجليزية ... فإذا ما تعثَّر في الإلمام بأحد حذافيرها، أو قابلته عقدة كأْداء، قال: لست متعجلًا ... فلا تقلق، ولا مانع عندي من الوقوف هنا، للإعادة والمراجعة، ولا داعي للمرور على أي شيءٍ مرَّ الكرام، فالوقت أمامنا طويل ... دعني أستوعب ببطءٍ، فما يُستوعب ببطء يُنسَ ببطء، وما يُستوعب بسرعة يُنسَ بسرعة ... وهكذا أدركت مدى حكمته وجِديته في الإلمام بكل شيءٍ في تلك اللغة العالمية.

اكتشفت شخصية الأستاذ سمير الفريدة، من معاملته وتصرُّفاته مع الموظفات اللائي يعملن معه في مكتبه بتلك الشقة ... كان يعاملهن بالحسنى وبكل عبارات المحبة والعطف والحنان والرقة ... لا يشخط ولا يأمر، وهو صاحب العمل ومن حقِّه أن يفعل ذلك، بل إذا أراد شيئًا من أحدى موظفاته، قال لها: أتسمحين، يا فلانة، بأن تفعلي كذا وكذا، أو تعطيني كذا وكذا؟

كانت هذه هي لغته معهن؛ يحنو ويلاطف ويسخو، كلما واتته فرصة لذلك ... وكان لا تفوته فرصة للمداعبة البريئة.

توطدت الصلة والثقة بيني وبين الأستاذ سمير ... فراح يحكي لي قصة زواجه بتلك الفتاة الفذَّة الأخلاق، التي صارت أم ولديه دينا وأسامة ... تحدث عن زوجته هذه بكل ما في الوجود من كلمات حلوة وصفات جميلة يمتدحها بها ويثني على سجاياها ... أما عن فرط حبه لولديه دينا وأسامة، فحدِّث ولا حرج ... كان يقول: إنني أتعلم منهما بعض الكلمات الإنجليزية، فكلاهما بمدرسةٍ أجنبية، اللغة الأولى بها هي الإنجليزية ... وهما في غاية الشقاوة الحلوة، وهذا ما يسرني ويُثلج صدري، إذ الشقاوة وليدة الذكاء، والخمول وليد الغباء.

– وهل تساعدهما في استذكار درسهما وعمل واجباتهما المدرسية؟

– بصراحة، أنا لا أساعدهما في ذلك، بل أتركه لزوجتي، نظرًا لانشغالي في العمل من الساعة السابعة صباحًا حتي السابعة مساءً ... لذا لا يتنسى لي أن أخلو مع طفلَيَّ هذين إلا لحظات قليلة ليلًا في كل يوم ... أمَّا يوم الأحد، الذي هو يوم راحتي الأسبوعية، فأقضيه مع الأسرة كلها، ولا أخرج من البيت اليوم بطوله ... وهنا أجد فرصة لمداعبة طفلَيَّ ... وأحيانًا ألقنهما ما تلقنني أنت إيَّاه في الدرس، والعكس صحيح.

مضى سمير، بعد ذلك، يحكي لي السبب وراء تركه مواصلة العلم عمومًا، فقال: مات والدي الثري ثراءً واسعًا، وكنت إذ ذاك في الخامسة عشرة من عمري ... وورثت جزءًا كبيرًا من ثروة أبي ... فكرَّست كل جهدي ووقتي لاستغلال المال الموروث، واستثماره في التجارة التي علمنيها أبي، وكان يتقنها، ويُعتبر رائدًا فيها.

– ألم تحاول أن تنحرف بعد أن ورثت كل ذلك المال الوفير، مثلما يفعل معظم أبناء الأثرياء في بلدنا بعد موت آبائهم؟

– كلا، لم يحدث البتة ... رغم أن طريق الانحراف كان أمامي سهلًا ميسورًا ... وكان رفقاء السوء يدفعونني إلى الفساد دفعًا، ويزيِّنون لي طريق الكباريهات والغواني، وعشق الراقصات والتمتع بحركاتهن الدنيئة المُثيرة للعواطف الجنسية ... إلا أنني كنت حريصًا على ألا أنحرف في ذلك التيار إطلاقًا ... وركزت كل اهتمامي ومجهودي في استثمار الأموال التي ورثتها عن المرحوم أبي، في تجارةٍ ناجحةٍ، تحميني مستقبلًا ... وكنت أضع نصب عيني الحكمة القائلة: «لعن الله الحرام في كل شيء.»

– هل أفهم من هذا أنك كنت تجمع بين دراستك الثانوية، وعملك في التجارة؟

– للأسف إنني لم أدرس أي شيء من المرحلة الثانوية، إذ تركت المدرسة بعد أن حصلت على الشهادة الإعدادية، وتفرَّغت تمامًا للتجارة بالطرق التي تعلمتها من أبي ... وتستطيع يا أستاذ أن تعتبرني من أصحاب الملايين.

– بارك الله فيك، وزادك من نعمته. وهل تُخرج جزءًا من أرباحك لعمل الخير والتصدق على الفقراء والمحتاجين؟

– نعم، أنا أوتي الزكاة الشرعية لمن يستحقها بحق، وأحيانًا أتصدق بأكثر من قيمة الزكاة التي حددها الشرع الحنيف.

– في رأيي، إن هذا من أسرار نجاحك.

– نعم، هو كذلك، إذ أمرنا سبحانه وتعالى بأن نعطي كل ذي حقٍّ حقه، وللفقير والأقارب الفقراء حق في ثروتنا، فقال جلَّ شأنه: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ «صدق الله العظيم».

– نعم الرجل أنت يا سمير، وأرجو ألا تغرَّك ثروتك فتحيد عن الطرق المثلى في إدارة تجارتك.

– أنا لا أخدعك ولا أغشُّك يا أستاذ ... فمع كوني من أصحاب الملايين، إلا أنني أحترم عملي وأُقدِّسه، وأزاوله خاضعًا لقوانين ونظم صارمةٍ، أطبِّقها على نفسي قبل أن أطبقها على موظفيَّ.

– لقد لمست فيك ذلك يا أستاذ سمير ... فأنت تحترم مواعيد العمل ... فما من مرة كان بيننا ميعادٌ لدرس إلا ووجدتك في انتظاري قبل الميعاد.

– أنا أغادر بيتي بمصر الجديدة في الساعة السابعة صباحًا، لأكون في مكتبي في الساعة الثامنة أو قبلها بدقائق، أي قبل مجيء الموظفين بنصف ساعة على الأقل فيرَونني في العمل قبلهم ويتخذون منِّي قدوة لهم … كما أنني لا أعفو عمن يتأخر عن ميعاد الحضور، فأُرسل له في أول مرة لفت نظر ثم الخصم فيما بعد المرة الأولى … لا حق لأي واحد منهم في التأخير. فأنا أكافئهم مكافأة لا يجدونها في أي عملٍ آخر، إذ أمنحهم مرتب نصف شهر في كل عيد لمواجهة مطالب أولادهم وزوجاتهم، ولتزيد فرحتهم بالعيد.

– إنك تتبع معهم نظامًا أوربيًّا خالصًا … فعندما زرت إنجلترا، كنت أجد الموظفين في الصباح واقفين مزدحمين أمام مقارِّ أعمالهم، حتى إذا ما فُتِحَ باب العمل في الميعاد الصحيح، هرعوا بالدخول … ولن تجد هناك مكانًا شاغرًا في أي وقت.

– نعم، أتبع النظام الأوروبي، لأنني سافرت إلى معظم بلاد أوروبا وعواصمها، وخصوصًا إنجلترا التي يُضرَب بها المثل في دقة المواعيد، وكذلك إيطاليا، فلي بهاتين الدولتين معاملات تجارية واسعة. وقد أعجبت بالأخلاق الأوروبية، وآمنت بجمالها، وأحاكي الأوروبيين في كل تصرفاتي وحركاتي ومعاملاتي … أما احترام الوقت والمواعيد فهو جزءٌ لا يتجزأ من ديني وديدني.

– ألم تفدك زياراتك إنجلترا في تعلم اللغة الإنجليزية؟

– قد يُدهشك أنني التحقت بمدرسة إنجليزية بالقسم الداخلي، حيث مكثت ستة شهور عسى أن أتعلم مبادئ قواعد اللغة عن طريق التعليم البريطاني، والاختلاط مع طلبة وطالبات تلك المدرسة.

– والنتيجة؟

– النتيجة كما ترى، وإلا لما لجأت إليك لتساعدني … والآن، والحمد لله، تعلمت على يديك في بضعة أشهر، ما لم أستطع أن أتعلمه من الإقامة الكاملة في إنجلترا.

– وهل تعدني بالمثابرة على التعلم بهذا النشاط وهذه الهمة وعدم التراخي؟

– أعدك بذلك … فإن هدفي الذي أُصرُّ عليه، هو أن أتمكَّن يومًا من التحدث بهذه اللغة بطلاقةٍ وسهولةٍ … ولا أكون مغاليًا إن قلت لك إنني أحب اللغة الإنجليزية أكثر من حبِّي اللغة العربية التي هي لغتي الأصلية ولغة بلدي.

– ولكن هذا يتطلب منك مجهودًا شاقًّا، قد يستغرق زمنًا طويلًا يجعلك تمَلُّ الدروس وتضيق بها ذرعًا.

– اطمئن يا أستاذ ... فهذا هو المُحال بعينه ... فأنا الآن غني، ومن حقي أن أُعلم نفسي ما فاتني أن أتعلمه في صغري، مهما أنفقت من مالٍ، فهو أفضل من إنفاقه في الفساد والمكيفات وما يغضب الله تعالى ... وربما لاحظت أنني لا أُدخِّن إطلاقًا، سواء بالسجائر أو بالنارجيلة.

– فعلًا، لاحظت ذلك.

– وحفاظًا على علاقتي بخالقي وعدم إغضابه، آثرت أن أتزوج وأنا صغيرٌ، فأنجب ذريةً صالحة ... كذلك، إمعانًا في طاعة الله والعمل بأوامره والامتناع عما ينهى عنه، أقضي وقتي في العمل نهارًا وفي بيتي مع أسرتي ليلًا، وأتفانى في إتقان عملي إذ يقول الحديث الشريف: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه» (صدق رسول الله).

– ألم تفلح أية موظفة ممن يعملن لديك في أن تنسيك زوجتك، وتغريك بشتى الطرق، إلى أن تكُون علاقتُك بها جنسيةً آثمة؟

– حدث هذا أكثر من مرة، ولكني كنت بعكس ما تتصور ... أطردهن من العمل شر طردةٍ، إلى أن قيَّض الله لي موظفتين محجبتين لم أر منهما أي انحرافٍ عن السلوك القويم، ولذا أعتبرهما ابنتيَّ، وأعاملهما على هذا الأساس.

– هذه عملٌ طيب، فكم من موظفةٍ لعبت بعقل رئيسها، وفرَّطت له في عرضها، ثم ألزمته بأن يتزوجها، وفعلًا كان يتزوجها بدلًا من عقاب القانون بالسجن لمدد طويلة نظير هتك العرض.

– كفانا الله شر أولئك اللعينات. والواقع أن الرئيس الذي ينساق تبعًا لأهواء موظفة عنده تكون على قدرٍ من الجمال، يستحق السجن وأكثر من السجن.

– وما هي مُثُلُك العليا في العمل؟

– المعاملة الطيبة، وألا أغمط أحدًا حقَّه، بل أعطيه حقَّه وأكثر منه في بعض الأحيان ... كما أن شعاري هو: المحبة والأمانة والشرف وتقوى الله في كل خطوة أخطوها.

– كم تبلغ الآن من العمر يا أستاذ سمير؟

– أنا في الثامنة والثلاثين من عمري ... أهم شيء عندي هو: عملي وبيتي وأسرتي وطفلاي وزوجتي الفاضلة بحق، التي تعمل في صمت وكأنها بلا طلبات في هذه الدنيا غير إسعادي وإسعاد أولادي وتهيئة جو راحتنا جميعًا ... تصور يا أستاذ أنها لم تطلب مرة واحدة أن تزور أهلها!

– هذه بحق زوجةٌ نادرة، بارك الله لك فيها وفي طفليك دينا وأسامة ليكونا مصدر سعادتكما وارتباطكما معًا ارتباطًا وثيقًا، أبد الدهر ... فإنكما أهل لكل خير ... «والطيبون للطيبات».

– ليت السماء تستجيب لدعائك يا أستاذ!

– الله سميع مجيب، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وها أنا ذا أدعو الله من أجلك.

– ونعم بالله ... وعلى فكرة، قرأت بعض القصص الغرامية وغير الغرامية في كتبك. فهل هي واقعية كما تبدو للقارئ، وأنت صادق فيما كتبت، أم هي من نسج الخيال، ثم نسبتها إلى نفسك، كي تجعل من نفسك «دون جوان» مثلما يحلو لكثير من مؤلفي القصص؟

– هذا بحق، سؤال وجيه! فكرة «دون جوان» هذه لم تخطر على بالي إطلاقًا في أي وقت، ولم يذكرها لي أي قارئ قبلك، إذ يصلني نقد من كثير من القراء والقارئات، غالبيتهم يقرظون ما كتبت، وبعضهم يُنحِي عليَّ باللوم، ولا سيما النساء، إذ يغضبهن ما كتبته عنهن صادقًا، لذا أرسلن إليَّ العديد من خطابات يتهمْنَني فيها بأنني عدو للنساء، وتتمادى بعضهن فتَكِيل لي الشتائم ... ولكن يعلم الله يا أستاذ سمير أنني توخيت كل الصدق في جميع ما كتبت من قصص غرامية وغير غرامية، حدثت لي فعلًا، وكنت فيها البطل المقاوم لأهواء معظم الإناث من فتيات ومتزوجات.

– هل تصدق يا أستاذ أنني شخصيًّا تعرضت لبعض المواقف التي ذكرتَها في بعض قصصك، وكنت مِثلك في المقاومة والابتعاد عمَّا يغضب الخالق ... لذلك أميل إلى تصديقك في أنك لم تكتب شيئًا على الإطلاق من الخيال، الذي كثيرًا ما يسرح في مجالات واسعة.

– وهل ذلك الذي تعرضتَ له في تلك المواقف، كان قبل أن تتزوج، أم بعد الزواج؟ فالموقفان يختلفان تمام الاختلاف في الغرض والهدف. فقبل الزواج تسعى المرأة إلى الإيقاع بالرجل في غرامها، وتغريه إلى أن يسلبها عرضها، لكي يكون أمام الأمر الواقع فيتزوجها مُكرهًا. أما بعد الزواج فالأغراض متعددة شتى: إما للحصول على المال، وإما للحصول على اللذة المحرمة، وإما للزواج أيضًا.

– بعض تلك المواقف كان قبل الزواج، والبعض الآخر بعد أن تزوجت ... وفي كلتا الحالتين كنت نقي الثوب، طاهر الذيل. وما ذلك إلا بفضل الله عز وجل الذي عصمني من الانزلاق في تيار الرذائل.

– ما قبل الزواج معروف ... ولكن ماذا فعلت في مواقف الإغراء بعد الزواج؟

– مارست فيها ما مارستَه أنت في معركتك مع الرذيلة، مع فارقٍ واحد: هو أنني لم أرتكب الفحشاء أو آت منكرًا مع أية واحدة منهن، بل حافظت على شرف أسرتي وطهارة سيري، وعلى مبادئي التي ألتزم بها أمام الله … فالنساء كما قالت إحداهن لأحد الخلفاء الراشدين:

إن النساء رياحين خلقن لكم وكلكم يشتهي شم الرياحين

فأجابها الخليفة على الفور بقوله:

إن النساء شياطين خُلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

– هو ذلك بالضبط يا أستاذ سمير … فالمرأة المستهترة أعنف شرًّا، وأشد بلوى وضررًا من إبليس بكل زبانيته.

– بل هن زبانية إبليس المفضلات عنده، يستخدمهن في تحقيق أغراضه من نشر الفساد والرذائل في كافة أنحاء الدنيا.

– وهن زبانيتنا أيضًا يا سمير.

– صدقت يا أمين … فما من رجل يستغني عن المرأة رغم شرورها وكثرة مطالبها، ودهائها ومكرها في ابتزاز الجنس الآخر.

– هل أفهم من قولك هذا، أنك مع النساء ولكنك غير راضٍ عن سياستهن مع الرجال، حتى ولو كانوا أزواجهن؟

– لست مع النساء، ولا أستسيغ سياستهن مع الرجال، وجشعهن وحرصهن على نيل كل ما مع الرجل من أموالٍ وممتلكاتٍ. لذا تزوجت كي أتفرَّغ تمامًا لعملي وتربية أولادي … فالزواج عصمة من الفساد، وهو كما يقولون: «نصف التدين» … ولقد وهبني الله بفضله زوجةً عاقلة، حكيمة، متزنة، تخشى الله في كل مسلكها … ليس لها أية طلبات ترهقني … كما أنني لا أجعلها تحس بأن شيئًا ما ينقصها أو ينقص الأولاد أو البيت نفسه.

– لقد أحببت دينا وأسامة من عذب كلامك عنهما، ولكونهما أولاد هذه الزوجة الكاملة القانعة، والتي هي نموذج للزوجة الصالحة التي تحكِّم عقلها في تدبير حياتها الزوجية والقيام برسالتها في هذا العالم، لا سيما في هذا العصر الذي امتلأ بالمساخر

بسبب ما يُسمِّيه الجهلاء «التفرنج»، وتسميه المستهترات «الحرية»، وأسميه أنا شخصيًّا: «عصر الدعارة السافرة.»

– شكرًا، وأرجو أن تكون أستاذ دينا وأسامة من أول العام المقبل، إن شاء الله، ووافقتَ على الاضطلاع بهذه المهمة التي تسعدني وتطمئنني على مستقبل أولادي.

– إنه لشرفٌ عظيمٌ لي أن تُسند إليَّ مهمة تدريس طفليك، كما أشكر لك هذه الثقة … ومما يشرفني أكثر وأكثر أنني سأكون أستاذًا للأب ولأولاده، وأعتز بهذا التقدير العظيم.

– إذن، فاستعد للمهمة الجديدة، ابتداء من بداية الإجازة الصيفية، باستثناء شهر أغسطس الذي أخبرتني بأنك تقضيه كل عام، منذ أكثر من عشرين سنة، في الخارج، في أرض اليونان مهد الفلاسفة.

– ولم لا تسافر معي إلى بلاد الأغارقة، كي تحظى برحلة العمر، ويا حبذا لو صحبت معك السيدة الكريمة حرمك المصون، وطفليك!

– يا لها من فكرة رائعة بحق … سأحاول تنفيذها، بإذن الله.

– على شرط.

– وما هو هذا الشرط؟

– أن يكون الحديث بيني وبينك، وبين طفليك، كله باللغة الإنجليزية، كي نضرب عصفورين بحجر واحد.

– وهو كذلك … لك ما اشترطت، رغم قسوة شرطك على من كان مثلي ما زال يحبو في اللغة الإنجليزية الجميلة … غير أنني، أنا أيضًا، لي شرط آخر.

– وما شرطك هذا يا سمير؟

– أن أتكفل أنا بجميع نفقات الرحلة من ثمن تذاكر الطائرة والانتقالات والإقامة والطعام، والنفقات النثرية الأخرى؛ أي أنك لا تضع يدك في جيبك إطلاقًا.

– الواقع، أن هذا أحلى شرط يصدر من فم شاب كريم مثلك. وشكرًا جزيلًا.

كان زمان وجبر

تخرَّجت نادية في مدرسة الألسن، وأخذت تبحث عن عملٍ ترتزق منه حتى حفيت قدماها، ولكن دون جدوى ... وأخيرًا قرأت إعلانًا في إحدى الصحف الصباحية، يطلب فتاة تُجيد الإنجليزية والكتابة على الآلة الكاتبة، باللغتين الإنجليزية والعربية، كما تكون لها خبرةٌ بالتِّلِيكس ... ولما كانت قد تعلمت ذلك عقب تخرجها في مدرسة الألسن توطئة للعمل كسكرتيرة في إحدى الشركات ... تقدمت إلى الشركة صاحبة هذا الإعلان ... وإذ كانت تقطن في نفس الحي الذي به الشركة، قبل طلبها، وتم تعيينها لأنها مستوفيةٌ لكل الشروط المطلوبة ... فضلًا عن أنها أنيقةٌ وجميلةٌ وفاتنة.

مدير هذه الشركة شابٌّ سوداني الأصل وسيم الخلقة، جميل العينين، أسمر البشرة، حسن المعشر، لبق الألفاظ ... وأحست نادية بأن الأستاذ «آدم» مدير الشركة يؤثرها باهتمامٍ بالغ، ويستدعيها كثيرًا إلى مكتبه، فتلبي أمره، وتقف إلى جانبه تقرأ خطابًا أو مستندًا يمسكه هو في يده ... فأدركت نادية، بغريزتها الأنثوية، أن الأستاذ آدم معجب بها، وكثيرًا ما تحتك ذراعه بصدرها وهي تقرأ ما في يده ... فتقول في نفسها: الذراع لا تحك بصدري عفوًا، ولا لغير ما سبب، بل لا بد أنه يقصد ذلك ويجد لذةً فيه.

بمرور الوقت انعدمت الكلفة بين نادية والأستاذ آدم ... ومن حسن حظ هذا الأخير أن نادية نفسها وقعت في غرامه بصورة لم تخْفَ على أي عين، وما أكثر العيون التي كانت تراقبهما. فصارت نادية هي التي تتعمد أن يحتك صدرها بجسم الأستاذ آدم ... وأحيانًا تميل فوقه وهي تقرأ الأوراق، فيقع خدها على خده، وما إلى ذلك من الحركات التي تجيدها النساء للإيقاع بالرجال.

أصبحت نادية لا تُرى إلا في صحبة آدم أو إلى جانبه في سيارته بعد انتهاء العمل بحجة توصيلها إلى بيتها. وكانت تحرص وهي جالسةٌ داخل السيارة، أن تتعرى فخذاها بين آونة وأخرى، وكانت ناصعة البياض المورد، بضة الجسم.

أحسَّت نادية بسعادة الحب وجماله ... كانت ترى في آدم الزوج اللائق لها وتعتبر نفسها سعيدة ومحظوظة إن حصلت عليه زوجًا لها، إذ هو لطيف المعشر، باسم الثغر، واسع الثراء، ناجح في عمله. كما أنها تشعر نحوه بعاطفة حب خارقةٍ، لم تحس بمثلها تجاه أي رجل سواه سبق لها أن رأته قبل أن ترى آدم ... فأخذت تتقرب إليه وتتحدث معه بعينيها أكثر مما تتحدث بشفتيها، كي تأسر قلبه.

تمادت نادية في علاقتها مع آدم، وكما يقولون: «الألف تجر الباء» ... فسمحت لنفسها بأن تقبل دعوته إيَّاها إلى العشاء في أفخم المطاعم ... فتوطدت الصلة بينهما، وزادت وثوقًا في العُرى، ونماء في الغِراس. كم كانت تتلهف نادية إلى أن تسمع من فم آدم أنه يحبها ويهيم بها ... ولكنه ما كان ليقول هذا ... ولعله كان يمعن في التزام الصمت من هذه الناحية ... كان يبثها غرامه بيديه وليس بفمه ... فاضطرت نادية، ذات مرة، إلى أن تبوح له بمكنون فؤادها، فقالت بلا استحياء: «أحبك يا آدم.» ... وانتظرت أن يرد عليها بقوله: «وأنا أيضًا أحبك يا نادية.» ... ولكنه اكتفى بأن أمسك يدها فقبَّلها ... وكان الله يحب المحسنين.

كانت نادية يتيمة، مات أبواها منذ حداثة أظفارها، فتولَّى أخوها تربيتها والإنفاق عليها حتى تخرجت، وكانت تعيش معه ومع زوجته وأولاده.

توخَّت نادية أن يتعرف أخوها بآدم ... فقامت بدعوة هذا الآدم إلى تناول الشاي بمنزلهم في إحدى الأمسيات ... فأُعجب شقيقها فوزي بشخصية آدم، وتوطدت العلاقة بين آدم وفوزي أيضًا.

لم تَبُحْ نادية لأخيها بما يعتمل في صدرها وقلبها من أحاسيس جارفة نحو آدم ... وظلت تتحرق شوقًا إلى أن يطلب آدم يدها من أخيها، خصوصًا بعد أن صارا صديقين حميمين، يلتقيان معًا في كثير من الأحيان ... بيد أن آدم لم يفعل.

برَّح الحب بقلب نادية، وتأججت نيرانه في صدرها عنيفة شديدة، بينما آدم كان أشبه ما يكون بلوح من الثلج، أو كمن يقول: «من يدري بك يا من تغمز في الظلام.» ... وهكذا كانت نادية تضرب في حديدٍ باردٍ لا يلين ولا يستجيب.

رأت نادية أنه ليس أمامها إلا أن تتمادى في تصرفاتها الحمقاء لتُوقع ذلك الآدم الذي قُدَّ قلبه من صَوَّان جُلمود ... وعقب محادثةٍ تليفونية، وافقت على أن تلتقي بآدم في شقته الجديدة التي استأجرها بالزمالك.

أبصرت نادية هذه الشقة مؤثثة بأفخر الأثاث، ومزركشة بأحدث فنون الديكور، فظنت أنها ستكون شقتها فيما بعد عندما تتزوج آدم، وأنه اشتراها خصيصى لها في حياتهما المستقبلية معًا ... ولذا دعاها لتعرف مقرها المستقبلي.

أُعجِبت نادية بهذه الشقة الجميلة، وكثر ذَهابها إليها والجلوس فيها مع آدم بالساعات ... ولأول مرة، طلب آدم من نادية أن تسمح له بأن يُقبِّلها ... فلبَّت طلبه عن طيب خاطر، ومنحته بدل القبلة الواحدة عشرات القبلات، بل المئات.

استمرأ آدم هذه اللعبة، وراح في كل مرة يطلب شيئًا آخر ... فالقبلات تجر الأحضان، وهذه تسمح لليدين بأن تعبثا أينما يحلو لهما العبث ... وهكذا، كان لا بد مما ليس منه بدٌّ ... فتورطت نادية المصرية مع آدم السوداني الذي أفقدها أغلى ما تعتز به الفتاة.

دأبت نادية، بعد ذلك، على زيارة آدم في شقته كل يوم تقريبًا، حيث يعاشرها معاشرة الأزواج في غير ما خجل ولا استحياء ... وطالت مدة العلاقة الجنسية بينهما إلى عدة شهور، فتحرك الجنين في أحشائها وعرفت أنها حُبلى ... فطالبته بأن يتزوجها درءًا للفضيحة، وما لا تُحمد عقباه ... ولكن آدم لم يكن ليفعل أكثر من أن يُطيِّب خاطرها ويسوِّف في كل مرة ... رويدًا رويدًا اختفى آدم من شقته المفروشة بالزمالك.

ذهبت نادية إلى الشركة لمقابلة آدم، والتحدث معه بخصوص الزواج ... فلم تجده، وقيل لها إنه استقال من عمله، وركب الطائرة عائدًا إلى السودان وطنه، ولن يعود إلى القاهرة قبل شهرين.

بعد أقل من عشرة أيام، علمت نادية من إحدى زميلاتها بالشركة أن آدم قد عاد من الخرطوم، ويقيم في شقة أخرى بالمهندسين، ولكنها لا تعرف عنوانه بالضبط.

عملت نادية المستحيل حتى عرَفت عنوان الشقة التي يُقيم فيها آدم، فلم تُضع وقتًا وذهبت من فورها إلى تلك الشقة.

ما كادت نادية تدق جرس الباب حتى فتحت لها الباب فتاة سودانية جميلة الوجه، خفيفة الظل، ولكنها كانت صارمة القسمات ترتدي الزي السوداني المعروف، وسألتها بقولها: ماذا تريدين يا سيدتي؟

– من تكونين يا فتاة.

– لست فتاة … بل أنا سيدةٌ متزوجة، ولي ابن في الثالثة من عمره، اسمه وليد.

– زوجة من أنت؟

أنا زوجة الأستاذ آدم ياسين.

– مدير الشركة المعروفة، بمصر الجديدة؟

– نعم، ولكنه استقال من عمله بتلك الشركة وأخذ مكافأته … وسنسافر غدًا إلى السودان عائدين إلى وطننا … هل من خدمة يا آنسة؟

– لا، وشكرًا … حسبت الأستاذ آدم ما زال يبحث عن سكرتيرة.

– عفوًا يا آنسة، هذا الكلام كان زمان وجبر … في المشمش.


هنداوي